

رِسَالَةُ جَدِيدَةٍ لِلجَاحِظِ فِي مَدَحِ آلِ دَاوُدَ

سمير محمود الدروبي

قسم اللغة العربية / جامعة مؤتة

محمد محمود الدروبي

قسم اللغة العربية / جامعة آل البيت

Abstract

The present work is a part of one of al-Jahiz's (Rasa'il) which has not been appeared among his publications before. We undertook this (Risala), and introduced it in two ways: **First:** we surround the (Risala) by a critical study, furnishing our attempts towards al-Jahiz as a writer of the Abbassid period. **Second:** An edition to the manuscript. (Berlin No. 5032). In fact al-Jahiz has written this work between A.H. 223 – 227. Most of (Risala) was dedicated to the family of Du'ad, whom the (Risala) was directed.

ملخص

تكشف هذه الدراسة عن فُصول مُهمّة من رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) لم تأخذ سبيلها إلى النشر أو التحقيق أو الدارسة من قبل، وقد عثرنا على هذه الفُصول الباقية من أصل الرسالة في كتاب «المُختار من كلام أبي عثمان الجاحظ» المخطوط ببرلين تحت رقم (٥٠٣٢)، وقمنا بإخراجها إخراجاً مُقتدياً بقواعد منهج التحقيق العلمي، بعد أن قدمنا لها بدراسة تناولت جوانب مُتعلقة بتوثيق النص وموضوعه وأسلوبه ومنهج تحقيقه.

وقد أظهرت نتائج الدراسة أن الجاحظ كتب هذه الرسالة بين سنتي (٢٢٣ - ٢٢٧هـ/٨٣٧ - ٨٤١م)، في مدح آل دُؤاد - أشهر بيوت القضاء إبان الدور الاعتزالي في العصر العباسي - ولا سيما القاضيين أبي عبد الله أحمد بن أبي دُؤاد الذي استأثرت مناقبُه بأكثر صفحات الرسالة، وابنه أبي الوليد مُحمّد بن أبي دُؤاد الذي وجه إليه الجاحظ رسالته.

• المَقْدَمَة :

بدأت العناية ببعث تراث الجاحظ منذ ما يزيد على مائة عام، فقد كانت نشرة كتاب «البيان والتبيين» الصادرة في القاهرة بين سنتي (١٣١١ - ١٣١٣هـ / ١٨٩٣ - ١٨٩٥م)^(١) باكورة حركة علمية نشطة استهدفت إحياء طائفة صالحة من آثار الجاحظ، بوصفه شيخاً من شيوخ البيان العربي ورائداً من رواد الحركة الأدبية في أزهى الأعصر الإسلامية. وتوالت مظاهر العناية بإحياء موروث هذا الأديب الفذ، فنُشرت - أول الأمر - أهم كتبه ورسائله، على أيدي ثلّة من العرب والمستعربين، مِنْ مِثْلِ: أحمد مفتاح^(٢)، ومُحِبّ الدين الخطيب^(٣) ومُحمّد ساسي المغربي^(٤) وطارح الجزائري^(٥)، وداود الجليبي^(٦)، وفضل الله الزنجاني^(٧)، وحسن السندوبي^(٨)، من العرب. وفان فلوتن^(٩)، ويوشع فنكل^(١٠)، من المستعربين.

ثم تحولت سيورته هذه العناية - منذ العقد الرابع من هذا القرن - من مجرد النشر إلى استيفاء الأسس العلمية في التحقيق، وبالمثل شاركت في هذا الاتجاه عناصر عربية واستشراقية، ولعل من أبرز المُحقّقين الذين تجدر الإشارة إليهم في هذا السياق: عبد السلام هارون^(١١) - أشهر من عني ببعث مكتبة الجاحظ غير مدافع - وطه الحاجري^(١٢)، ومُرسي الخولي^(١٣)، ونُوري القيسي^(١٤)، وحاتم الضامن^(١٥)، ويحيى الجبوري^(١٦)، من العرب. وباول كراوس^(١٧)، وشارل بلا^(١٨) - أشهر من اشتغل بتراث الجاحظ تحقيقاً ودراسة وترجمةً في دوائر الاستشراق - من غير العرب.

وإلى جانب هذين الاتجاهين ظهر اتجاه ثالث افتقر إلى الجِدّة والأصالة، ولم يعبأ بالروح العلمية في النشر، بل عاث فساداً وتشويهاً في تراث الجاحظ الخالد، وأضحت نشراته تعج بالتحريف والتصحيف والسقط مما أفضى إلى استغلاق النصّ الجاحظي على كثير من دارسيه، ويمكننا القول مُطمئنين إن جميع الآثار الجاحظية التي تقع في هذا النطاق لا تعدو أن تكون مُقتبسةً اقتباساً مُشوهاً عن نشرات أو تحقيقات سابقة، ويكاد هذا الحكم ينسحب على مجموعة الآثار التي أعاد نشرها: مُحمّد علي الزعبي^(١٩)، وجميل جبر^(٢٠)، وعمر أبو النصر^(٢١)، وعلي أبو ملحم^(٢٢)، وعبد الأمير مهنا^(٢٣)، وجميعها منشور في بيروت.

ويلاحظ أن ركوداً مطبقاً أصاب حركةً بعث ما لم يُنشر من ثراث الجاحظ منذ نحو عشرين حولاً، إذ لم يظهر بعد أن أخرج عبد السلام هارون جزأين من رسائل الجاحظ، في القاهرة سنة (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)، جديدٌ من آثار الجاحظ. وأمّا ما نُشر عقب هذا التاريخ فلا يعدو أن يكون مكروراً، كما هي حال الرسالتين اللتين حققهما حاتم الضامن^(٢٤) والرسالتين اللتين حققهما إبراهيم جريس^(٢٥)، والرسائل التي أعاد نشرها طه الحاجري^(٢٦). وكذا الأمر فيما يتصل بالآثار التي نُشرت بصورة مُستقلة، كما هي حال: كتاب البرصان والعُرجان^(٢٧)، وكتاب البغال^(٢٨)، وكتاب المحاسن والأصداد^(٢٩) المنسوب خطأ إلى الجاحظ^(٣٠).

• تحقيق نسبة الرسالة:

تبدو نسبة هذه الرسالة إلى الجاحظ راجحةً من وجوه، لعل من أبرزها:

- ١ - يبدو أسلوب الرسالة جاريّاً على سنن منهج الجاحظ في الكتابة، غير نافرٍ عن معالم مذهبه الإنشائي، كما سيبدو عن الحديث عن ملامح أسلوب الرسالة.
- ٢ - في الرسالة بعض فقرٍ يُمكن للفاحص أن يجد نظائرها في بعض مؤلفات الجاحظ، ويبدو هذا الملمح مُتفقاً تماماً مع ما هو معروفٌ عن الجاحظ من الميل إلى التكرار والترداد، ومن الشواهد التي يصلحُ التمثيلُ بها في هذه السبيل قول الجاحظ يُخاطبُ أبا الوليد محمد بن أبي دؤاد: «وقد أشبهت - أبقاك الله - شيخك في خلقه وخلقه، وفعله وعزمه، مع الشهادة الكاملة، والنفس النامية، ومرجعُ الأفعال إلى الطباع، ومدارُ الطباع على جودة النفس، وقوة المنة، وبها تتم العزيمة، وتنفذ البصيرة»^(٣١)، ويقع الناظر على هذه الفقرة بتمامها - مع اختلافات يسيرة تُرد إلى اختلاف النسخ - في رسالة الجاحظ إلى أبي الفرج الكاتب في «استنجاز الوعد»^(٣٢). ومن ذلك قوله يُخاطبُ أبا الوليد: «ولو لم يُثبت وطأتك ويشدُّ أزرك، إلا أنه ليس على ظهرها مظلومٌ إلا وهو يرجوك، ولا ظالمٌ إلا وهو يتقيك»^(٣٣)، ولا ينأى هذا المقطع إلا يسيراً عما جاء في رسالة الجاحظ إلى القاضي أحمد ابن أبي دؤاد في «صفة كتاب الفتيا»^(٣٤). ومثل ذلك قوله: «ومن لم يقل [قط] - بعد مُخاصمته وطول مُنازعتة - لو كنت قلتُ كذا وكذا كان أفضل، ولو لم أكن قلتُ كذا وكذا

كان أمثل»^(٣٥)، ولا يكاد قولُ الجاحظ ههنا يَبْعُدُ عن قولٍ له حكاه في رسالة «التربيع والتدوير»^(٣٦).

٣ - تلتقي مُجْمَلُ الآراء التي عرضها الجاحظُ في هذه الرسالة مع ما هو مشهورٌ عنه، فحديثه عن المدح في هذه الرسالة^(٣٧)، يُقَارِبُ كثيراً ما ذهب إليه في رسالتيه: «المودة والخُلطة»^(٣٨)، و«استنجاز الوعد»^(٣٩). وكذا الأمرُ فيما هو مُتَعَلِّقٌ بحديثه عن: وجوب العناية بتنقيح الكتب، والتحذير من غرور المؤلف بما يكتب، ومُقايَسة الكتاب بالولد^(٤٠)، فإنَّ آراءه في هذه المباحث لا تعدو أن تكونَ وثيقةَ الصلة بما قاله في كتابه «الحيوان» عن دور الكتاب وأهميته في تثقيف العقول وتلقيح الأذهان^(٤١).

٤ - ليس في نصِّ الرسالة ما يمنع أن يكون إنشاؤه في زمن الجاحظ، إذ ليس في إشاراتِهِ الأدبية والتاريخية ما يتجاوز العصرَ الذي عاش فيه أبو عثمان.

٥ - إنَّ خلو سائر الأثبات التي عُنيَت بِسردِ جريدةِ آثار الجاحظ من ذكر هذه الرسالة لا ينهض - وحده - دليلاً مُعْتَبِراً على نفي نسبة هذه الرسالة إلى الجاحظ؛ نظراً لضياع عُنوانها الحقيقي من جانبٍ - كما سنرى - وعدم إحاطة هذه الأثبات بجميع عُنوانات الآثار العلمية التي خَلَفَهَا الجاحظ من جانبٍ آخر.

● تحقيق عُنوانها:

لم يرد في النسخة الخطية التي حفظت الفُصولَ الباقية من أصل الرسالة ما يُشير - ولو على نحوٍ - إلى عُنوانها الذي وضعه الجاحظ، ويبدو إغفالُ الإشارةِ إلى العُنوان مُتَسَقاً تماماً مع منهج صاحب الكتاب الذي حفظ لنا هذه الاختيارات، فهو لم يَأْبه من فاتحة كتابه - المُختار من كلام أبي عثمان الجاحظ - إلى خاتمته بتسمية الآثار التي انتخب منها، مُخَالَفاً بذلك منهج صنوه عبيد الله بن حسان الذي اختار لنا فُصولاً قيمةً من كُتُب الجاحظ ورسائله، مع الإبقاء على أسماء الآثار التي انتقى منها^(٤٢). والحقُّ أنَّ منهجَ صاحب هذه الاختيارات هو المسؤول عن إفقادنا العُنوانَ الذي وسم به الجاحظُ رسالته.

ولا يبدو غريباً ألا تردَّ الإشارةُ إلى عُنوان هذه الرسالة في سائر الأثبات التي صنعها القُدَّامى والمُحدِّثون ابتغاءَ رصدِ نتاج الجاحظ، وقد يزول وجهُ الغرابة - إلى حدٍّ ما

- إذا ما علمنا أن كثيراً من هذه الأثبات أغفلت ذكر كثير من آثار الجاحظ، وربما كانت هذه الرسالة منها. وقد يكون بعض هذه الأثبات أورد الرسالة مُعنونةً بعنوان آخر فالتبس عنوان الرسالة التي بين أيدينا بعنوان غيرها.

ويجدر أن نلفت النظر إلى ما يتراءى للناظر من صلة تربط بقايا هذه الرسالة برسالة الجاحظ في «نفي التشبيه»^(٤٣)، وتبدو هذه الصلة مُعقدة من وجوه: أولها أن الجاحظ وجه كلتا الرسالتين إلى أبي الوليد محمد بن أبي دؤاد^(٤٤)، وثانيها أن الجاحظ عني في كلتا الرسالتين بإبراز مناقب آل دؤاد، ولا سيما مناقب عميدهم القاضي أحمد بن أبي دؤاد^(٤٥)، وثالثها حديث الجاحظ في الرسالتين كلتيهما عن ملامح مُتشابهة من علاقة هذا القاضي بالخليفة المُعتصم^(٤٦)، ورابعها تصريح الجاحظ بتوجيه كتاب مع كل رسالة من الرسالتين؛ ليتصفحها المخاطب، ويُبدي ملاحظاته عليه^(٤٧). إن هذه الروابط قد تُغري الدارس وتسوقه إلى الحكم بأن أصل الرسالتين واحد، بيد أن هذا الحكم ما زال بمسيس الحاجة إلى وثائق نصية أقوى من مجرد تلك المشابه التي قد تقع في العادة، لا سيما بين آثار الجاحظ كونها ذات خصائص مُشتركة.

وسواء أقلنا إن هذه الفصول بقايا رسالة مُستقلة، أم قلنا، إنها جزء ضائع من رسالة «نفي التشبيه»، فإن هذه الفصول تظل جديرةً بالعناية، سيما أنها جديدة في بابها، لم يسبق أن نُشرت أو دُرست من قبل.

• إلى من وجه الجاحظ هذه الرسالة؟

صرح الجاحظ في بدء رسالته أنه قصد من إنشائها ذكر مناقب والد الشخص الذي راح يُخاطبه بقوله: «وأما ذكر فضائل والدك الذي أشرق بفضله قلبي إشراقاً، وسقط الشك فيه عن نفسي، فإنني لو وصلت لساني بالسن البشر لذكره، لتناهى بي الفراغ من الثناء عليه»^(٤٨). وإذا مضينا في قراءة النص، ألفينا الجاحظ يذكر اسم الشخص الذي رام ذكر مناقبه صراحةً غير مرة، يقول: «هو أحمد بن أبي دؤاد»^(٤٩)، ويقول: «إلا أن ابن أبي دؤاد، فإننا لم نذكر فناً من الخير، ولم نصف ضرباً من الكرم، إلا وهو فيه بحذافيره»^(٥٠). ولا يقف الجاحظ عند التصريح باسم هذا القاضي حتى يُثبت كُنيتَه أيضاً، يقول:

«وأبو عبد الله يُعطي قبل السؤال وبعد السؤال»^(٥١)، ويقول في موطن آخر: «وأبو عبد الله جوده في وزن حرّمه»^(٥٢).

وإذا ما ثبت لدينا أنّ الرسالة كُتبت في مناقب القاضي أبي عبد الله، أحمد بن أبي دؤاد، وأنّ الجاحظ وجهها إلى أحد أبنائه، انتقل بنا البحث إلى التحقق من اسم ابن أحمد ابن أبي دؤاد الذي خصّه أبو عثمان - دون إخوته - بهذه الرسالة. ومن المعروف أنّ أحمد ابن أبي دؤاد أنجب عدداً من الولد، يقول النديم في هذا السياق: «وكان لأحمد عدة أولاد أغرب في أسمائهم وكُنَاهم، والذي أنجب من الجماعة أبو الوليد، وولي القضاء في حياة أبيه، وتوفى قبل وفاة أبيه بنحو شهر»^(٥٣). وجاء في إحدى نسخ فهرست النديم: «فمن كُنّى أولاده: أبو الوليد، وأبو دؤاد، وأبو إياد، وأبو دهمي»^(٥٤)، فالإي هؤلاء الأبناء وجّه الجاحظ هذه الرسالة؟

إنّ مُجمل الإشارات التي بين أيدينا تُرجح أن يكونَ أبا الوليد، أنجب إخوته، هو المخصوص برسالة الجاحظ دون أبناء أحمد بن أبي دؤاد الآخرين، استناداً إلى الاعتبارات التالية:

١ - من المعروف أنّ صلة الجاحظ الأدبية لم تكن منعقدة بأحد أبناء أحمد بن أبي دؤاد انعقادها بابنه أبي الوليد، بل ليس لدينا ما يُشير إلى أنّ الجاحظ كان على وثيق صلة بإخوة أبي الوليد المذكورة كُنَاهم أنفأ، ولعل ممّا يُعزز هذه الحقيقة أنّ الجاحظ لم يكد يعرف أبا بكر بن أبي دؤاد - أحد أبناء أحمد بن دؤاد - حين قدم عليه بالبصرة سائلاً سماعَ حديثٍ رواه الجاحظ بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٥٥).

٢ - خصّ الجاحظ القاضي أبا الوليد بطائفة من رسائله، كرسائله في «المعاش والمعاد»^(٥٦)، ورسائله في «نفي التشبيه»^(٥٧)، ورسائله في «النبأ»^(٥٨)، ورسائله في «الكبر»^(٥٩)، وغيرها^(٦٠). ويبدو أنّ هذه الرسالة تجري المجرى نفسه، وليس ثمة ما يدل على أنّ الجاحظ خصّ أحداً من أبناء القاضي أحمد ابن أبي دؤاد بشيء من رسائله سوى أبي الوليد.

٣ - خاطب الجاحظُ أبا الوليد في هذه الرسالة بعبارات نفعُ على ما يُضارِعها في رسالة «نفي التشبيه» التي كتبها الجاحظ إلى أبي الوليد، كما أسلفنا، فمن ذلك إشارة الجاحظ إلى مُحاكاة أبي الوليد والدَه أحمد بن أبي دُؤاد، يقول الجاحظُ في هذه الرسالة: «وقد أشبهت - أبقاك الله - شيخك في خلقه وخلقه»^(٦١)، ونظير ذلك قوله في رسالة «نفي التشبيه» مخاطباً أبا الوليد أيضاً: «وقد ثقيلت - بحمد الله - أخلاقَ شيخك، واحتذيت على مثاله»^(٦٢). ومن ذلك استشارة الجاحظ أبا الوليد في كتاب ألفه وطلب إليه أن ينظر فيه قبل إبرازه للناس ونشره بينهم^(٦٣)، وتصادفنا النغمة ذاتها في رسالة «نفي التشبيه»^(٦٤). وواضح أن تشابه نبرة الخطاب في الرسالتين يشي بأن الجاحظ أنفذهما إلى شخص واحد، وبما أنه من الثابت أن الجاحظ وجه «نفي التشبيه» إلى أبي الوليد^(٦٥)، فإن الأمر ينسحب على هذه الرسالة أيضاً.

٤ - في النص طائفة من الإشارات الصريحة والضمنية التي نستشف من التدقيق فيها أن المُخاطب بالرسالة كان صاحبَ نظرٍ في مسائل الشرع والقضاء، ممّا هو مُنطبقٌ تماماً على شخص أبي الوليد دون سائر إخوته، فمن ذلك الإشارة إلى جريان المخاطب ووالده على السّن نفسه^(٦٦)، ومعروف أن أبا الوليد بن أبي دُؤاد كان يجري على طريقة أبيه، كما يؤمى إلى ذلك تولي الولد قضاء الدولة خلفاً لوالده^(٦٧). ومن ذلك حديث الجاحظ عن صفة مجلس المخاطب^(٦٨)، وهي لا تبرح صفة مجالس شيوخ المعتزلة الذين انتظم أبو الوليد في سلّكهم حتى وفاته. ومن ذلك إشارة الجاحظ إلى علو رتبة المُخاطب، وما يتحلى به من العدل، وإنصاف المظلومين، والأخذ على يد الظالمين^(٦٩)، وتكاد مثل هذه الصفات تكون لصيقةً بمثل شخصية أبي الوليد القاضي.

إن هذه الاعتبارات الأربعة - مجتمعة - تدعونا إلى إضافة هذه الرسالة إلى جملة الرسائل التي خص بها الجاحظُ صديقه أبا الوليد، محمد بن أحمد بن أبي دُؤاد.

• تاريخُ إنشائها:

نستطيع، بالنظر إلى الشخصية التي وجه إليها الجاحظُ هذه الرسالة، أن نجعل سنة (٢٣٩هـ / ٨٥٣م) حداً أعلى لإنشائها، وهي السنة التي توفّي في أواخرها أبو الوليد

ابن أبي دؤاد، الذي خصه الجاحظ بهذه الرسالة، ببغداد^(٧٠)، وذلك قبل وفاة أبيه أحمد بن أبي دؤاد بعشرين يوماً، على ما ذكره الطبري^(٧١).

وإذا ما رُحنا نتعقب إشارات النص، أمكن أن ننزل بالتاريخ الآنف إلى المدّة التي وسّدَ فيها أمرُ الخلافة إلى المُعتصم، أي ما بين سنتي (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٢٣ - ٨٤١ م)، والدليل على ذلك قولُ الجاحظ مُطرياً أحمدَ بن أبي دؤاد: «وما ظنك بثوبٍ يُسديه أميرُ المؤمنين، ويُدبره ابنُ أبي دؤاد، وما ظنك بتدبيرِ فصلٍ من المُعتصم بالله، وقام به أبو عبد الله»^(٧٢)، وتبدو هذه الإشارة واضحة في الدلالة على أن الجاحظ وضع رسالته إبان خلافة المُعتصم، حين كان أحمد بن أبي دؤاد في أوج سلطانه: قاضياً للدولة، وشيخاً للمعتزلة، ومستشاراً للخليفة، وعلماً من أعلام قضية القول بخلق القرآن.

وفي سبيل تضيق المدة الممتدة نحو عشر سنوات (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٢٣ - ٨٤١ م)، ترد الإشارة في النص إلى أحداثٍ تاريخيةٍ مهمةٍ شهدتها سنة (٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م)، يقول الجاحظ: «وإن كان قتلُ بابك فتحاً عظيماً، وهزيمةُ الطاغية نصراً عزيزاً، وفتحُ عمورية نفعاً كبيراً، فإن الذي عمّ الإسلام من: نفي التشبيه، وظهور التوحيد، وقمع البدع، واجتماع الكلمة، والوفاق على السُّنة... أعمُّ فضلاً، وأظهر أثراً»^(٧٣). وتُرد الإشارة مرة أخرى إلى فتح عمورية وقتل بابك الخُرَّمي: «على أن نصيبه في فتح عمورية معروف، وموضع غنائه مكشوف، وتدبيره في شأن بابك موصوف»^(٧٤).

وهكذا يمكننا - بعد النظر الداخلي في النص - أن نُضيف هذه الرسالة إلى نتاج المدة الواقعة بعد سنة ٢٢٣ / ٨٣٧ م، سنة مقتل بابك وهزيمة ملك الروم وفتح عمورية، وقبل سنة (٢٢٧ هـ / ٨٤١ م)، سنة وفاة المُعتصم^(٧٥).

● مَوْضُوعُهَا:

يجدر أن تلفتَ بدءاً إلى أن ضياع الأصل الكامل للرسالة يعوق من الإلمام بالصورة الوافية لسائر المضامين التي عالجها الكاتب في رسالته، وعلى الرغم من وجود هذه المثبّطة في النص، إلا أن ذلك لا يحول دون المضي في تبيين أبرز ما انطوى عليه النص من قضايا مُختلفة.

ويترأى للقارئ بجلاء أن موضوع المدح يشكل محوراً رئيساً في الرسالة، ولا يبدو هذا الملحظ لافتاً إذا ما علمنا أن الجاحظ قصد من إنشاء رسالته مدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد، وذكر فضائله، وعد مناقبه^(٧٦). على أن الجاحظ لم يكتف بمدح القاضي المذكور حتى خرج إلى مدح ابنه القاضي أبي الوليد، وكأنما أراد الكاتب لرسالته أن تكون أمدوحة في آل دؤاد، تُخلد مآثر الوالد والولد، وتقدم أنموذجاً لبيت من أشهر بيوت القضاء في المدة التي سطع فيها نجم الاعتزال وقامت دولته.

إن المدح - في أوليته - غرض شعري، استأثر الشعر العربي بالتعبير عن معانيه ومضامينه حتى مدة متأخرة نسبياً حين أُتيح للنثر العربي أن يدخل أبواب الحياة ويُنازع الشعر ويُزاحمه، وقد أفضت هذه الحال إلى انقلاب النثر إلى فن قادر على استيعاب ألوان من الأدب، والتعبير عنها تعبيراً فنياً جميلاً. ويمكننا أن نتخذ الرسالة التي بين أيدينا مثلاً على هذا المنحى من مناحي التطور في مسيرة النثر العربي.

تتماز مدحة الجاحظ هذه بملمحين ظاهرين: أحدهما الاستغراق في إضفاء النعوت الحسنة على الممدوح، مع التنويه بها والتعظيم لها. وثانيهما العناية بالصفات النفسية الخلقية دون الأوصاف الجسمية الخلقية. أما الملمح الأول، فقد وفر للمدحة سعة جعلتها تنفسح لاستيعاب تفصيلات لا تكاد المدحة الشعرية ذات القيود الداخلية تتسع لها عادة. ويستطيع الدارس أن يجلي أمر هذا الملمح إذا ما راح يتعقب تلك الطائفة من النعوت التي أسبغها الكاتب على ممدوحه، والظاهر للعيان أن الجاحظ عمد إلى نثر هذه النعوت في أثناء الرسالة على غير نسق مُفصّل عنه، تاركاً للقارئ - أو الدارس - فرصة لم شعثها وما تناثر من شذورها على النحو الذي يرتضيه.

وتتنوع الأوصاف التي يسبغها الجاحظ على ممدوحه - كما أسلفنا - تنوعاً واضحاً، فهو يمدحه بالعقل^(٧٧)، والعلم^(٧٨)، والفهم^(٧٩)، والحلم^(٨٠)، والعدل^(٨١)، والكرم^(٨٢)، والفضل^(٨٣)، والحياء^(٨٤)، والوقار^(٨٥)، والدمائة^(٨٦)، والفطنة^(٨٧)، والدهاء^(٨٨)، والحكمة^(٨٩)، والنزاهة^(٩٠)، والفتوة^(٩١)، والمروءة^(٩٢)، والفراسة^(٩٣)، والزهد^(٩٤)، والتقوى^(٩٥)، والبر^(٩٦)، والعفة^(٩٧)، والتواضع^(٩٨)، والهدوء^(٩٩)، واللين^(١٠٠)، والبشور^(١٠١)، والوفاء^(١٠٢)، والحزم^(١٠٣)، والاتزان^(١٠٤)، والتثبت^(١٠٥)، والتميز^(١٠٦)، وأصالة الرأي^(١٠٧). ولعله لا يخفى

على الناظر في هذه الطائفة من النُّعوت أنَّ الكاتب يستقيها من رافدين: أحدهما الرافد العربيُّ مُمثلاً بما هو مشهورٌ عند العرب من مُستحسن الصفات وكريم الأعراف، وثانيهما الرافد الإسلاميُّ مُمثلاً بما دعا إليه الإسلامُ من الفضائل السامية والأخلاق الحميدة. ويُستخلص من التدقيق في هذين الرافدين أنَّ أمدوحة الجاحظ كانت مزاجاً من التصورات الإسلامية والأعراف العربية. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذ نُقرر - في هذا السياق أنَّ هذين الرافدين كانا يُشكلان أهمَّ مصادر ثقافة الجاحظ، مع عدم إطباق الطرف عن خطَر المصادر الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية وغيرها في ثقافته.

ولا يلحُ الجاحظُ على فضيلةٍ من الفضائل الأنفة إلحاحاً على فضيلة الكرم، وكأنَّما هو يرى أنَّ هذه الفضيلة تُشكل محورَ الفضائل المتجلية في شخص ممدوحه القاضي أحمد بن أبي دُؤاد. ويؤكد أبو عثمان منذ بدء حديثه عن هذه الفضيلة أنَّ كرم ابن أبي دُؤاد هو مدعاة تفضيله على غيره^(١٠٨)، وأنَّ جُود هذا الرجل يُردُّ إلى باب الطبع^(١٠٩)، فهو مطبوعٌ على هذا المسلك النبيل حتى لكانما رَضَّعه صغيراً من لبان أمه. وقد أُتيح لهذا الطبع أنَّ ينالَ حظه من النماء، فإذا ابنُ أبي دُؤاد قد «انفرد بالكرم في دهر اللؤم، وتوحد بالجُود في زمن الإمساك»^(١١٠). ويؤكد الجاحظ أنَّ هذه المنقبة جرَّت ابنَ أبي دُؤاد إلى الإفراط الذي لا يخلو من مخاطرة وخيمة العواقب: إذ الحالُ التي بلغها الممدوحُ في بذل المال قبل الطلب وبعده، أفضت إلى ما يُشبه العوز الذي يَلَوُّحُ للكرم بسببٍ من بسطِ يده على نحوٍ لا يقيه من غوائل الدهر المخبأة، ولشدَّما تبدو هذه الفكرة باديةً في عبارة الجاحظ حكايةً عن ممدوحه الذي «لا يدعُ من ماله ظهيراً لغده»^(١١١).

وأما الملمحُ الآخر المُميِّز لمدحة الجاحظ هذه، فيتمثل في إعراض الكاتب عن وصف جسم الممدوح إلى وصف أخلاقه، والجاحظ - كما تراءى من قُريب - يجعل أكبر وكده مُوجهاً نحو صفات القاضي ابن أبي دُؤاد الخُلُقِيَّة، وفي المقابل تراه لا يعبأ بالحديث عن أيٍّ من المؤهلات الجسميَّة التي أتيها هذا القاضي. إنَّ هذه الوجهة في المدح تدلُّ بما فيه الكفاية على تمثُل الجاحظ لما هو مُقرَّر لدى النقاد العرب من استواء عمود المدحة الناجحة على بثِّ فضائل الممدوح وإبراز صفاته النفسيَّة بعيداً عن رسم معالم صُورته الجسميَّة، كالحديث عن طولهِ أو قصرهِ أو امتلائهِ أو ضعفهِ وما إلى ذلك، مما لا يُشكل

عنصراً حقيقياً من العناصر التي يتفاضل الناس على أساسها.

ويلاحظ الدارس أن الجاحظ يحاول الإنارة على طرف من فضائل أبي الوليد، محمد ابن أبي دؤاد، في أثناء حديثه عن فضائل والده أبي عبد الله، أحمد بن أبي دؤاد، وهو بذلك يشير إلى مقايضة الولد لوالده وجريانه على شاكلته، وهذا ما يقرره الجاحظ صراحةً إذ يقول مخاطباً أبا الوليد: «وقد أشبهت - أبقاك الله - شيخك في خلقه وخلقه، وفعله وعزمه، مع الشهادة التامة، والنفس النامية»^(١١٢). ويُفرد الجاحظ في آخر فصول الرسالة مساحةً يتحدث فيها عن جانب من مناقب الابن، مؤكداً حيازته الفضل والفهم وبعد النظر^(١١٣)، ورعايته مجالس العلم ومُنتدياته^(١١٤)، فضلاً عن استفاضة أمر عدله بين الخلق^(١١٥). ولا تعدو مجمل صفات الابن أن تتعاقق في نهاية المطاف مع تلك المنظومة من الصفات التي أضفاها الجاحظ على الوالد.

وفي إطار من المدح، يُعنى الجاحظ بالحديث عن بعض الأعمال الجليلة التي قام بها أحمد بن أبي دؤاد، وأول هذه الأعمال ما يُعبر عنه الجاحظ بقوله: «نفي التشبيه، وظهور التوحيد، وقمع البدع، واجتماع الكلمة، والوفاق على السنة»^(١١٦) ويبدو أن أبا عثمان يشير ههنا إلى ما نهض به هذا القاضي من الدعوة إلى مقالة المعتزلة في خلق القرآن الكريم، وامتحانه عشرات الفقهاء في هذه المسألة، على ما هو معروف^(١١٧). إن هذا العمل يبدو جليلاً في نظر الجاحظ، بل هو يراه أعظم مما حققه المعتصم من القضاء على الثورة البابكية والانتصار على الروم وافتتاح عمورية^(١١٨)، على أن الجاحظ لا ينسى من جانب آخر أن يُشيد بدور ابن أبي دؤاد في تحقيق هذه الإنجازات المهمة^(١١٩). وليست تبدو هذه الرؤية مستغربة إذا ما علمنا أن حلقةً مذهبيةً واحدة كانت تضم الجاحظ وابن أبي دؤاد في سلكها، فكلاهما معتزلي يدعو إلى توحيد الاعتزال، وينافح عن مبادئه المتمثلة في: العدل والتوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاحتكام إلى العقل الذي هو وكيل الله على خلقه، وغير ذلك من قواعد الاعتزال وأصوله المعروفة.

وأما العمل الآخر الذي يراه الجاحظ قميناً بالذكر، فهو ما قام به ابن أبي دؤاد «من منع الظلم، ونصرة المظلوم، وإخراج الغل من قلوب المقهورين، والغني من قلوب القاهرين، حتى عاد الحق عزيزاً، والباطل ذليلاً، والفتن مقموعة، والأهواء مرفوضة، والشبهة ظاهرة».

والحُجَّةُ قاهرة، السَّبيلُ آمنٌ، والدنيا ساكنةٌ، والأطرافُ محفوظةٌ، والبيضةُ ممنوعةٌ، والنَّفوسُ راضيةٌ، والرؤوسُ خاضعةٌ، والعيونُ قريرةٌ، والآمالُ فسيحةٌ، والأسعارُ رخيصةٌ»^(١٢٠). وواضحٌ أنَّ الجاحظ يُشير في هذا السياق إلى المنزلَ التي كان يتبوأها أحمد بن أبي دؤاد بوصفه قاضي الدولة، فهو الكفيلُ بإقامة نظام العدل وتحسينه، حتى ينطلق الناسُ مطمئنين إلى نزاهة القضاء وعدالته، قانعين بمدى حُصول الأمن وتحقيق الرخاء.

ويرى الجاحظ نفسه وقد سلك سبيلَ المدح مجروراً - بشكل ما - نحو الحديث عن أصول هذا الفن وعناصر نجاحه، ويضع أبو عثمان في هذا الصدد عدداً من شرائط المدح الجيد، وأول ما يُشدد عليه الجاحظ من هذه الشرائط: الصدق^(١٢١)، أي أنَّ تكون الصفاتُ الإيجابية مُتحققة في المدح على نحو لا يُشكل خروجاً على الحقيقة أو خرقاً لمواضعاتها، وإلا فإنَّ انتصابه للمدح يكون كذباً صراحاً وملقاً ممجوراً. وثاني هذه الشرائط: الموضوعية^(١٢٢)، أي أنَّ يكون المادح أميناً على مدحته، يذكر ما للممدوح مُجرداً عن سائر المؤثرات التي قد تؤثر في موضوعية المدحة على نحو ما. ويُضيف الجاحظ إلى الشرطين الآخرين شروطاً أخرى، أهمها: التناسب بين المدح وحال المدح، واستفاضة أوصاف الممدوح عند الناس، مع كون المدح تاماً جامعاً^(١٢٣).

وتبدو الرسالة مُشتملةً - إضافةً إلى المحور الرئيس الآنف - على عدد من القضايا الجزئية يُشكل جلُّها صورة من مواقف الجاحظ النقدية والفكرية، كموقفه من قضية الكتابة والتأليف^(١٢٤)، وموقفه من العامة^(١٢٥)، وموقفه من بعض الفرق الإسلامية^(١٢٦)، وموقفه من الصراع مع الروم والحركات الباطنية المناوئة^(١٢٧). وإذا ما استثنينا موقفه النقدي من قضية الكتابة والتأليف، ألفينا مواقفه الأخرى ترد بصورة عابرة لا تُتيح إقامة صورة متكامل فيها الجوانب الأساسية لكل موضوع. ومن هنا، نؤثر الاكتفاء بتناول القضية الأولى وهي قضية الكتابة والتأليف؛ كونها الأبرز بين أخواتها من القضايا الأخرى.

يلتفت الجاحظ أولاً ما يلتفت في هذه القضية إلى ما يتعلق بالحقيقة التي تُوضع الكُتب على أساسها، وهو يرى في هذه الوجهة أنَّ «التَّشجُّع»^(١٢٨) هو المدعاة الحقيقية لتأليف الكتب، ويُمكننا أنْ ننظرَ إلى تعبير الجاحظ «التَّشجُّع» من وجهين - لعله أراد أحدهما أو كليهما - أولهما أنَّه يرى أنَّ صناعة الكتاب عملية شاقة تتطلب من الكاتب

ضُروباً من الشجاعة والثقة والجَدّ ونحو ذلك، وثانيهما أن الجاحظ لم يُرد الشجاعة بمدلولها السابق، وإنما أراد التشجيع؛ إذ للرعاية دورها في إقبال الكُتّاب على الكتابة وانقطاعهم إلى التأليف.

ويُقدم أبو عثمان للمؤلفين طائفةً من النصائح المُستقاة من تجربته الطويلة مع الكُتّاب، فالجاحظ المؤلفُ وقد عانى الكتابة، وتمرس بقُنُونها، وتدرَّب على أساليبها، وكابد طويلاً حتى رسخت قدمه في ميادين التأليف والتصنيف، يرى ضرورة أن يَعْصِرَ هذه التجربة العميقة ليقدم للمؤلفين - أبناء صنّعته - صفوة ما خَبِرَهُ بنفسه؛ لتكون هذه النصائح نبراساً بين أيديهم، يحتذونها فيما يرصفون ويؤلفون، تجنباً للمزالق التي يسوق أبو عثمان طرفاً منها.

يبدأ الجاحظ مُحذراً ممّا قد يترتب على انقطاع المؤلف إلى نفسه، وانكفائه على ذاته، وتقوقعه داخل أبراجه المُغلقة من الاعتدال بالنفس، المُفضي إلى الغُرور، وهو أنكى الأدواء التي تُصيب الكُتّاب بصفة عامة والمؤلفين منهم على وجه الخُصوص. فالمؤلف إن دخله هذا الداء أصبح بينه وبين الحقيقة التي يسعى إلى الاقتراب منها حجابٌ كثيف، ومن لوازم هذا الحجاب أن يرى المؤلف أن كلامه هو الفصل الذي لا يُعَقَّبُ عليه، وأن الرأي الصائب ما عبّر عنه، وأن الناس جُهلاء بما يكتب، وأن خصمه أصغر من أن يُجاريه في هذا المضمار، يقول: «فاحذر مع وضع الكُتّاب آفة الخلوة، وبرائق الوحدة، فإنها تُورثك الثقة بنفسك، والاسترسال إلى غيرك عند غيبة الخصم عن عينك، وارتفاع ذكره عن وهمك»^(١٢٩).

ولا يذَر أبو عثمان نصيحةً حائراً أمام فتكة هذا الداء الوبيل حتى يضع من أسباب العلاج ما يكون كافياً لكل من رأى من المؤلفين أن هذه الحال اعترته، يقول: «ودواؤه أن يظن عند كل لفظة وعند كل معنى وخطرة، أن الناس كلهم علماء، وأنهم جميعاً لك أعداء، وكلهم فارغ إلا من النظر فيه والتّصفّح له، وأنهم إن نظروا فيه نظروا نظر من لا يبسط عُذرك، ولا يحب رُشدك، ولا يُعجبُ بكلامك كعُجبك، ولا يجدُ به كوجدك»^(١٣٠). ووصفُ الجاحظ للدواء وصفٌ دقيقٌ مُشخص، يجذب انتباه المؤلف إلى ضرورة احتذاء

سبيل البحث العلمي بكل ما ينضم عليه من: أمانة ومسؤولية ودقة وموضوعية وصدق وتحري وتكامل وشمول، ومعروف أن المؤلف إذا أحس برقابة صارمة مُرتقبة تنتظره، شعر بثقل ما يكتب، وصرف جهده إلى التجويد القائم على الأسس المتقدمة؛ لعلّهُ أن كتابه سيقف - حتماً - أمام نظر ناقد يكشف عن أخطائه وعثراته، وأن الصيارف سيميزون غثة من سمينه، ويقفون على عجره وبجره. إن الجاحظ - كما يبدو واضحاً - يدعو المؤلف إلى حالة من أقصى حالات التطرف في سبيل قمع غروره العلمي، فإذا كان غروره يدعوهُ إلى تجهيل غيره، فإنّ الداء - في نظر الجاحظ - مُتمثل في وجوب اعتقاد المؤلف خلاف ذلك تماماً، فإذا ما اعتقد المؤلف أن قراءه يجمعون صفتي: العلم بما يكتب والعداوة له، رجع إنْ ذاك إلى نفسه، وأعاد النظر في كتاباته مرة تلو مرة، وعندها يكون قد تخطى عن أهم مظاهر العُجب والغرور، وصولاً إلى الحق المبني على التمحيص، وتجنباً للخلل والزلل.

ويُفصل الجاحظ بعيد ذلك في ملامح النظرة العامة التي يحملها المؤلفون عادةً نحو كتبهم ومؤلفاتهم، وقوام هذه النظرة أن الكاتب مُعجبٌ أبداً بما يكتب، فهو ينظر إلى كتابته نظرةً مُشرقةً لا قتام فيها، وهو يعدُّ كتابه - فوق ذلك - مُقايساً لولده، فالولد من نتاج أبيه، وإليه ينتسب، وكذا الكتاب فهو من نتاج مؤلفه، وإليه ينضاف، وهذه المقايسة تجعل المؤلف ينظر إلى كتابه نظرة ألفه وودّ، تماماً كما هي نظرة الوالد إلى ابنه^(١٣١). والجاحظ يعدُّ هذه المقايسة أفةً حقيقيةً لا يكاد يسلم منها إلا من كان يقظاً مُحفظاً، توجهه همته لا عاطفته، وموضوعيته لا هواه^(١٣٢). ولعلّ الجاحظ عبّر بموقفه من هذه المقايسة عن موقف شخصي خاص به، فمن المعروف أن هذا الأديب لم يُرزق أحداً من الولد، ولم يذق حلواء البنين شاباً وكهلاً وشيخاً، على الرغم من شدة تحرقه لذلك ورغبته فيه، وثمة إشارات في رسالة «الجدّ والهزل» تحمل في جوفها صدى من تلهف الجاحظ إلى أن يكون له ولد يُضمُّه إليه ويحمل اسمه، يقول مُعاتباً الوزير ابن الرّيّات: «ما كان عليك أن يكون لي ولد يُحيي ذكري، ويحوي ميراثي، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي... وما كان عليك من بُني صغير يكون لي... وما كان عليك مع كبر سني وضعف ركني، أن يكون لي ريحانة أشمها وثمره أضممها، وأن أجد إلى الأمان به سبباً، وإلى التلهي سلماً»^(١٣٣).

وفي منحى متصل بالمنحى الأنف، يُمَازِجُ الجاحظُ بينَ لونين من الخطأ: أحدهما خطأ الكتاب، وثانيهما خطأ اللسان، وهو يرى أن الأولَ أخطرُ من الثاني، وحجته في ذلك أن «القلمَ أبقي عاراً، وأدومَ خزيّاً، وأبعدَ في الآفاقِ صيتاً»^(١٣٤). والحقيقة التي يُشير إليها الجاحظُ هنا يُقرُّها الواقعُ وتُصدقها التجربة: فالمادة الموثقة المكتوبة أثبتت من المادة اللسانية المُشافهة: لاعتماد الأولى التدوين، وقيام الثانية على الرواية، ومن هنا كان الخطأ المكتوب أجسَمَ خطراً وأبعدَ وقعاً وأدومَ عُمرأً من الخطأ اللساني غير المكتوب. إن الخطأ المكتوب سيَّار بطبعه، فهو ينتقل مع الكتاب أينما حلَّ، وتتعاقب عليه الأزمنة، وهو مُثبت في موضعه، ينظره القراء ويقفون عليه، وربما أضافوه إلى جُملة مثالب الكاتب ونسبوه إلى الخل والزلل.

وحتى لا تُفهم دعوة الجاحظ المؤلفين إلى وجوب العناية بمؤلفاتهم، وتخليصها من زوائدها، وتنقيحها من أخطائها على أنها دعوة إلى المثالية التي يعسرُ تحقيقها، تراه يُوجه الأذهانَ إلى حقيقة مُهمة مفادها أن كمالَ الكتاب عزيز، فمهما بذل المؤلفُ طاقته وأعمل جهده في إقامة كتابه، فسيظلُّ الكتابُ - في نظر الجاحظ - غير خالٍ من خطأ أو خللٍ أو اضطراب^(١٣٥)، ويصمُّ الجاحظُ مَنْ ينشدُ كمالَ الكتاب بالجهل والغرور والعُجب^(١٣٦). وبذلك يتبين أن الجاحظَ لا يدعو إلى المثالية بقدر دعوته إلى تحقيق الحد الأدنى المطلوب لإقامة الكتاب على صورة مَرْضِيَةٍ.

أراد الجاحظُ ألا تظل نصائحه ووصاياه إلى المؤلفين محصورة في دوائر التنظير، فإذا هو يعرضُ كتاباً له ألفه على أهل الاختصاص قبل إظهاره للناس، استأنساً برأي هذه الطائفة، واسترشاداً بعلمهم ومعرفتهم، وبما يُمكن أن يكون لديهم مما غاب عن مُخيلته وندَّ عن تصوره، تعزيزاً لرؤيته في التأليف وآرائه في التصنيف، يقول مُخاطباً أبا الوليد ابن أبي دُؤاد: «إني - أيدك الله - قد ألفتُ كتاباً احتجتُ إلى عرضه عليك، واستشارتك فيه، فإنَّ العلمَ إنَّما ينقص، والخبرَ إنَّما يطرُفُ منك ترك التعاون عليه والتصادق فيه... وأنا أسألك بحق التوحيد، وبحُرمة الإسلام، وبذِمَامِ المُتَحَرِّمين بك، والعارفين بما جعله الله عندك إلَّا نظرتُ في هذا الكتاب قبل ظُهوره، وتصفحته قبل انتشاره، فإنَّ عيبي راجعٌ إليك، وناقصٌ من قوتك، ومن لم يحمل ضعفه حلَّ به ضعفه، ومن لم ينصر مولاه عجزَ عمن

ناوَاهُ»^(١٣٧). إِنَّ الجاحظَ مؤمنٌ تماماً بأنَّ كمالَ الكتابِ لا يُمكنُ أنْ يتحققَ، ولكنَّه يلتفت من جهةٍ أُخرى إلى أهمية أنْ ينظر في الكتابِ المؤلَّف شخصٌ آخر له بصراً ودراية في الموضوع المكتوب فيه، ومثل هذه الخطوة جديرة أن تُنبه الكاتب إلى ما يعتور كتابه من عيب، وإلى ما يُمكن أن يكمن فيه من مواطن الضعف والخلل والاضطراب، وبذلك يكتسبُ قوةً، وينأى عن كثير من المزالق التي خفيت على المؤلف نفسه.

ولا بدّ من الإشارة أخيراً إلى أن تقديمَ الجاحظ لمؤلفاته على هذا النحو ليس بدعاً في هذه الرسالة، فثمة رسالة له في «صفة كتاب الفتيا»^(١٣٨)، وثمة تقديم في رسالة «نفي التشبيه» لكتابه في «الرد على المشبهة»^(١٣٩)، ويُطالعنا هذا الاتجاه في رسالة «النأبئة»^(١٤٠) أيضاً. والملاحظ أن جميع هذه الرسائل كانت موجهة إلى آل داؤد، إمّا إلى القاضي أحمد ابن أبي داؤد، وإمّا إلى ابنه أبي الوليد، وكأنّما كان يرومُ الجاحظُ من اطلاع أعيان بيت القضاء هذا على مؤلفاته أنْ يضمن لها قدراً من الذبوع والانتشار، لا سيّما أن كلَّ كتاب منها سيحظى بمباركة قاضي الدولة، فضلاً عما ينتظره أبو عثمان من المكافأة المادية الجزلة.

• أسلوبها:

سبق أن قرّرنا أن ليس في أسلوب الرسالة ما يشي بنفورها عن منظومة السمات الفنية العامة التي انطبع بها مذهب الجاحظ الكتابي، وعلى الرغم مما هو مُلاحظ من تجلُّ لبعض ملامح طريقة الجاحظ الفنية بصُور متفاوتة، بعضها أوضح من بعض، إلا أن ذلك لا يبدو غريباً في أكثر ما جاد به قلمُ الجاحظ. وانطلاقاً من هذه الملاحظة، يُمكن للناظر أن يجد تفسيراً لعدم قوة الأثر القرآني والحديثي في هذه الرسالة. على أن ذلك يقتضي التأكيد هنا على أهمية هذين المؤثرين في ثقافة الجاحظ، لا سيّما أنّه نشأ في ظلّهما، حتى غدا تعبيرهما مخالطاً نفسه، فهو يستمدُّ من ألفاظهما ومعانيهما وصُورهما استمداداً تلقائياً دون استحضارٍ قسري. ومن أبرز الأمثلة على الأثر القرآني قول الجاحظ: «وربما أنفق أحدهم المالَ الكثيرَ والقدرَ الخطيرَ في البناء، وفي الفراشِ والأنية والكُسوة، وفي الأطعمةِ والأشربة، وفي الرياحين والفواكة، وفي الظرف والعطر، وفي عِشقِ القيان، والشغفِ بالعبيد، وفي الجواري والخصيان، وفي المراكبِ والشاكرية، وفي المدعاة على

المباراة، وفي السّفه والمباهاة، حتى يُؤتى على آخره، مع عِظَم خطره، وكثرة صنُوفه، ليس فيه عتق رُقية، ولا «إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا مقربة»^(١٤١). فالإقتباس من سورة البلد^(١٤٢) يبدو واضحاً في هذا المثال، ولعله ليس بخاف أن جو السورة الكريمة المتمثل في قوله تعالى حكاية عن الإنسان «يقول أهلك ما لأبداً»^(١٤٣) يتسق تماماً مع موقف المُسرف الذي يعرض له الجاحظ، فالموقفان يتنفسان في جو واحد، هو جو السرف المُفرط الذي لا طائل تحته، وقد استدعى توحّد الموقفين اقتباس نصّ الآيات بحذافيره، دون تحوير إلّا ما جاء في أوله «ليس فيه عتق رقية»، وجاء هذا التحوير الجزئي تمهيداً للدخول إلى الآيات اللاحقة وإثباتها بنصوصها.

وقد يتحول الجاحظ من محض الاقتباس الصريح إلى ما هو أعمق من ذلك، ويبدو هذا المنحى الأكثر براعة في قوله يُخاطب أبا الوليد: «ولو لم يُثبّت وطأتك، ويشدّ أزرك، إلّا أنه ليس على ظهرها مظلوم إلّا وهو يرجوك»^(١٤٤). ويجد الناظر في العبارة الأولى أنّها تتألف من شقين، أولهما «يُثبّت وطأتك» وهو من كلام الجاحظ، وثانيهما «يشدّ أزرك» وفيه نظر إلى قوله تعالى «هارون أخي * اشدد به أزري»^(١٤٥). وواضح أنّ الجاحظ ركّب عبارته من ركنين، استوحى ثانيهما من القرآن، وبنى الأولى على غرارها، ليعبر بهما عن ثبات الأمر وإحكام قوته.

ويبدو التأثير بالحديث النبويّ ظاهراً في قوله «ولك رائد لا يكذب، ومُخيلة لا تُخلف»^(١٤٦)، فهو ينظر صراحةً إلى قوله صلى الله عليه وسلم في أول خطبة له بمكة حين أدّن بدعوته: «إنّ الرائد لا يكذب أهله»^(١٤٧). وواضح أنّ الجاحظ يستلهم عبارة الحديث لفظاً ومعنى، فضلاً عن تبني ما تقتضيه أجواء العبارة الرافدة، إذ ألقت بظلالها على الشق الآخر من العبارة «ومُخيلة لا تخلف» حتى بدت الأخرى مُلتحمةً مع سابقتها، وكأنما هما مُتعاقدتان، أو كأنهما روحان حلتا في جسد لفظي واحد، لتأدية المعنى الذي يقصد الجاحظ إيصاله إلى ذهن السامع.

وإلى جانب هذين المؤثرين، يُفيد الجاحظ من موارد أخرى أهمها: الشعر العربي كما في استشهاده بقول زهير بن أبي سلمى «دع ذا وعدّ القول في هرْم»^(١٤٨)، والأمثال العربية

كما في توظيفه: مواعيد عُرقوب وبرق الخُلب ونار الحَبَابِ^(١٤٩)، والأقوال الماثورة كما في نقله قول المغيرة بن شعبة في عُمر بن الخطاب «كان والله أعدل من أن يخضع، وأفضل من أن يخدع»^(١٥٠)، وقول عُمر بن عبد العزيز «رحم الله امرأً أهدى إلينا مساوئنا»^(١٥١).

ولعل أهم ما يطالع الناظر في أسلوب الرسالة ما أشاعه الجاحظ فيها من خصيصة الازدواج، على غرار ما هو معهود في كتاباته، من ذلك قوله في صفة القاضي أحمد بن أبي دؤاد «لا يُقرنُ به نظير، ولا يُعرف له شبيه، قد لقي كلُّ خلاف بضده، وأعد لكلِّ داءٍ دواءه، ولبس لكلِّ دهر لباسه، ووضع لكلِّ أمر موضعه، وفتح أقفال المشكلات بحقائق البيان، وكشف أغاليط الجدل ببراهين الحجج، وأوضح مُتشابهات الفلسفة بدلائل الحكمة»^(١٥٢). وعلى النسق نفسه يجري قوله: «إن أوعروا به أسهل، وإن تصعبوا له تذلل، وإن خشنوا عليه لان، وإن شاغبوه سكن»^(١٥٣). والناظر في هذين المثالين يرى بجلاء أن كل عبارتين متقابلتين تتكافأ تكافؤاً يشي بتعادل كل زوجين، فهما يأخذان برقاب بعضهما، وكأنهما يُشكلان سلسلةً مُتصلةً، ومثل هذا المنحى يُذكر في مقدمة المناحي الأسلوبية التي انطبع بها فن الجاحظ الغذب.

وقد يلجأ الجاحظ أحياناً إلى تكتيف مُزدوجاته ليؤكد الفكرة التي يريد الحديث عنها، وكأنما هو يُظهر قدرته الفائقة على حشد الجمل، من ذلك قوله:

«حتى عاد: الحق عزيزاً

و الباطل ذليلاً،

و الفتن مقموعةً،

و الأهواء مرفوضةً،

والشبهة ظاهرةً،

و الحجة قاهرةً،

و السبلُ آمنةً،

و الدنيا ساكنة،

و الأطراف محفوفة،

و البيضة ممنوعة،

و النفوس راضية،

و الرؤوس خاضعة،

و العيون قريرة،

و الآمال فسيحة،

و الأسعار رخيصة^(١٥٤).

فهذه خمس عشرة عبارة تتسلسل في بناء تركيبى متناسق يدل دلالة وافية على قدرة الجاحظ على إشباع الفكرة التي هو بصدها، ويلاحظ الناظر أن كل عبارة من هذه المزدوجات تقابل أختها، سوى عبارة «العيون قريرة»، ويبدو أن أختها سقطت عنها. والملاحظ أن كل عبارة مؤسسة على اسم معروف بأل تتلوه صفة، ومثل هذا الاتساق يحقق نوعاً من الانسجام الصوتي التركيبى، وقد زاد في تحقيق هذا النوع من الانسجام تلك السجعات الموسيقية المتتالية، مما يجعل لنثره تنغيماً موسيقياً يزداد وقعاً أحياناً، فيهز نفس القارىء، ويأخذ بمجامع قلبه إعجاباً وطرباً.

وقد يؤسس الجاحظ هذا التكتيف المزدوج على الفعل من جانب والمفعول به أو شبه الجملة من جانب آخر، كما في قوله:

«وهو الذى: تسربل النهى

و ارتدى التقى،

و تعطف بالحجى،

و ائترز بالحلم،

و تتوج بالوقار،

و تطبّع بالجود،

و تنبل في النجد،

و اغتدي بالكرم،

و وشّع باللّب،

و حكم بالفصل،

و نطق بالعدل،

و رسخ في الفضل»^(١٥٥).

ويمكن للمتتبع أن يجدَ أشكالاً أخرى من المزدوجات التي أشاعها الجاحظُ في رسالته، غير أنَّ المقامَ لا يتسع للمضي في استعراضِ أكثر من المثالين الآنفين اللذين نرجو أن يكونَ فيهما مَقْنَعٌ للقارئ.

وإلى جانب المزيّتين الآنفتين، تبدو الرسالة مشحونةً بالأساليب الإنشائية بما تضمّه من ضروب الإيحاء والإثارة، ولعل الجاحظ لم يكن ميّالاً إلى واحدٍ من الأساليب المنطوية في هذا الباب قدرَ ميله إلى أسلوب الاستفهام بكلّ ما يحمله من معاني الإنكار والتعجب والتقرير والنفي وغير ذلك، وتبدو الأمثلة على هذا الملمح كثيرة، من ذلك قول الجاحظ: «وكيف وأنى السبيلُ إلى تفضيله بالكرم، ولستُ رانياً منزلةً فضلٍ أنسبها إليه إلاّ وجدتها في الفضل دونه؟!»^(١٥٦)، وقوله: «وماذا عسى أن أقولَ فيمن تُنازعني مُناظراتُ محاسنه، حتى بقيتُ لا أدري بأي معنى منها أبدأ من صفته؟!»^(١٥٧).

وقد يعمدُ الجاحظُ أحياناً إلى تكثيف استفهاماته التي يأتي بها تكثيفاً لافتاً حتى تبدو من الضرب المتدارك المتلاحق، بغيةً تعزيز الفكرة التي يرمي إلى إثباتها محاولاً رسم صفة الكمال في الممدوح، بما يؤكدُه من صفاته الحميدة التي لا تخلو من مُبالغة وتزيّد أحياناً، يقول مادحاً أحمد بن أبي دؤاد:

«فأيُّ غايةٍ في العلم لم يأتِ عليها؟!

أم أيُّ منزلةٍ فضلٍ لم يستكملها؟!

أم أيُّ مرتبةٍ مروءةٍ لم يبلغها؟!

أم أيُّ درجةٍ مدحٍ لم يعلُّها؟!

أم أيُّ مزيةٍ قصرَ عنها؟!

أم أيُّ أحدىثةٍ صدقٍ لم تُنسب إليه؟!

أم أيُّ خطةٍ فضلٍ لم يفِ بها؟!

أم أيُّ جادةٍ برٍّ لم يسلكها؟!

أم أيُّ عطيةٍ خيرٍ منعها؟!«^(١٥٨).

وليس من ريبٍ في أن هذا التتابع للاستفهامات التي تتلبَّسُ ثوباً واحداً من شأنه أن يَشُدَّ ذهنَ القارئِ شَداً يجعله يتبصر في سرِّ هذا الاستفهامِ المُستغرقِ في منازل: التحقيق والإقرار والإثبات والتعجب.

ولا ننسى ما دُنا في سياق الحديث عن ملامح أسلوب الرسالة أن نُشير من طَرَفٍ إلى مزيةِ الجاحظ الأخرى، وأعنى بها الاستطراد، فهو لا يتقيد تماماً بالبقاء في إطار الموضوع الذي أفرغ له الرسالة، بل تراه يخرج إلى موضوعات أخرى تبدو صلتها بالموضوع الرئيس غير واضحة تماماً في بعض الأحيان، إلا إذا شتئنا أن نخضع هذه الصلة للتأويل المفضي إلى البحث عن علاقات باطنية لا تعدو أن تكون موضعَ نظر. ومن الأمثلة التي نتخذها شاهداً على هذا المنحى استطراد الجاحظ للحديث عن مذاهب الناس في العداوة^(١٥٩).

ويمكننا أخيراً الإشارة إلى ما يُصادفنا في زوايا الرسالة من منحى تصويريٍّ، يميل إلى «أنسنة» الأشياء تارة، أو تجسيمها تارة، أو إلbasها لوازمَ غيرها تارة ثالثة. فمن ذلك تصويره: التقصير ببحر عميقٍ تتلاطم لُججه^(١٦٠)، والدَّمَاة بشجرة ذات أغصان

باسقة^(١٦١)، والسخاء بسماءٍ سُحبها مُثقلة بالماء^(١٦٢)، والأيام بالإنسان المُماطل الذي يَعِدُ بالوفاء وَيُبَيِّت الإخلاف^(١٦٣).

● النسخة الخطية:

تقع هذه الفُصول - التي تُعنى بدراستها وإخراجها - ضمن نسخة خطية وحيدة محفوظة في برلين تحت رقم (٥٠٣٢)، عنوانها «كتاب المُختار من كلام أبي عثمان الجاحظ»، وليس ثمة ما يُشير إلى اسم الشخص الذي قام بجمع هذه الاختيارات وترتيبها في كتاب مُستقل. ويبدو أن الرجل وقف على طائفةٍ صالحةٍ من آثار الجاحظ، فراح ينتخب ما يحلو له من النماذج الجاحظية السامقة، دون أن يحكم هذا الاختيار منهجٌ مرسوم أو أُسسٌ موضوعيةٌ مُعلنة. ومهما يكن من أمرٍ، فإن لهذا الشخص، المجهول اسمه وعصره وموطنه، فضلاً لا يصح نُكرانه؛ إذ حفظ لنا في كتابه نُصوصاً نفيسةً من إنشاء الجاحظ، ضاعت أصولها الكاملة، فيما ضاع من ثراث هذا الأديب الفذ.

يضم هذا الكتابُ بين دفتيه مجموعةً كبيرةً من الفُصول المنتقاة من كتب الجاحظ ورسائله، منها ما هو منشورٌ، ومنها ما لم يُتَح نشره حتى الآن، ومن اللون الأخير هذه الفُصول التي تُعنى بدراستها وإخراجها في هذه الدراسة. وعلى الرغم من إشارة بروكلمان إلى هذا الأصل^(١٦٤)، إلا أن معرفة الدارسين به ظلت محدودة، إذ لم يتسنَ لأكثر المشتغلين بالجاحظ الوقوف على هذا الأصل، ويكاد نطاق انتشاره يكون محصوراً فيما يلي:

- ١ - اتَّخذ باول كراوس وطه الحاجري هذا المخطوطَ أصلاً يُقابلان عليه بعض نُصوص «مجموع رسائل الجاحظ»^(١٦٥) الذي أخرجاه سنة (١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م).
- ٢ - نشر طه الحاجري، سنة (١٣٦٥هـ / ١٩٤٧م)، رسالتين من المخطوطة إحداهما: في «موت أبي حرب الصَّفَّار البصري»^(١٦٦)، والأخرى في «هجاء مُحَمَّد بن الجهم البرمكي»^(١٦٧). وأعاد الحاجري نشر هاتين الرسالتين بعد نحو أربعين عاماً^(١٦٨).
- ٣ - اتَّخذ شارل بلا هذه المخطوطة أصلاً قابل عليه طرفاً من رسالة «نفي التشبيه» التي حققها سنة (١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م)^(١٦٩)، وذكر بلا في صدر نشرته أنه فحص عن أمر

هذه المخطوطة، وفصل محتواها في مقالة وعد بنشرها^(١٧٠).

٤ - قام محمد الدروبي سنة (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) بتوصيف المخطوطة، مُشيراً إلى صلة الدارسين بها^(١٧١)، ومُتحدثاً عن أهم الآثار الجديدة التي كشفت عنها هذه المخطوطة^(١٧٢).

وفيما يتعلق بوصف النسخة، يظهر للدارس أنها تقع في مائة وأربع وأربعين ورقة، قياسها ٢٣ × ٢٦ سم، ومتوسط عدد أسطرها سبعة عشر سطرًا في الصفحة الواحدة، ومتوسط عدد كلماتها ثمانين كلمة في السطر الواحد، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة (١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م)، واسم ناسخها محمد المقرئ، أو المصري. خطها جميل واضح، وهي مشكولة شكلاً كاملاً إلى حد ما، بيد أن الشكل يبدو غير دقيق أحياناً. وتخلو المخطوطة، كما قلنا آنفاً، من محض إشارة إلى اسم جامعها، وثمة تلميكان أحدهما على الورقة الأولى باسم حسن بن عبد الكريم الحسيني الدمشقي، وآخر على الورقة الأخيرة يعود إلى سنة (١٢٨٠هـ / ١٨٦٤م). وكُتِبَ على الورقة الأولى عنوان الكتاب واسم الجاحظ صريحين، على هذا النحو: «كتاب المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ رحمه الله أمين».

ومن ميزات هذه النسخة أنها: تضع - أحياناً - صَاداً صغيراً أسفل حرف الصاد، وترسم العين - أحياناً - مُغلقة على هيئة الحاء، وترسم الألف المقصورة - كثيراً - ممدودة، وتُمَيِّز الهاء من التاء المربوطة - في كثير من الأحيان - بوضع سُكُون فوق الهاء، وإذا رسمت كلمة أو حرفاً وأرادت حذفه رسمت عليه إشارة ضرب صورتها (x).

وتقع الفُصُول التي عُنينا بدراستها وإخراجها بين الورقتين: الثامنة عشرة والثانية والأربعين، من الأصل المخطوط، وقبلها مُختارات من رسالة «التربيع والتدوير»، وبعدها مُختارات من رسالة «نفي التشبيه».

• مَنهج إخراج النص :

اتبعنا في قراءة هذا النص وإخراجه عدداً من الخُطوات المنهجية، يمكن أن نُوجزها فيما يلي:

- ١ - اعتمدنا في إثبات النصّ أصلاً خطياً واحداً هو كتاب «المُختار من كلام أبي عثمان الجاحظ» المخطوط في برلين برقم (٥٠٣٢)، ولم نجد لهذا الكتاب نسخة أخرى حتى تتسنى لنا المقابلة عليها.
- ٢ - اتبعنا الرسم الإملائيّ الحديث في كتابة النصّ، فحققنا الهمز المُسهل (مثل: شمايله/ شمائله)، ورددنا الهمزة إلى وضعها الصحيح (مثل: يسئله/ يسألها)، وحذفنا الألف من آخر المضارع المفرد المختوم بالواو؛ لعدم دلالتها على الجماعة (مثل: يصفوا/ يصفو).
- ٣ - أشرنا إلى نهاية وجه الورقة بخط مائل على هذه الصورة (/)، في حين أشرنا إلى نهاية ظهر الورقة بخطين مائلين على هذه الصورة (//)، واتخذنا الحرف (و) رمزاً لوجه الورقة، والحرف (ظ) رمزاً لظهرها.
- ٤ - وضعنا بعض الزيادات اللازمة وحصرناها بين قوسين معقوفين صورتها [].
- ٥ - عُنينا بضبط النصّ وشكل كثير من كلماته، ما وجدنا سبيلاً إلى ذلك.
- ٦ - نبّهنا إلى ما وقع في النصّ من تحريفٍ وتصحيفٍ، وأثبتنا الصواب في المتن والخطأ في الحواشي.
- ٧ - خرّجنا ما شعرنا بأهمية تخريجه من إشارات النصّ ومعارفه المختلفة.
- ٨ - فسرّنا ما جاء في النصّ من معانٍ لغويّة واصطلاحية، أحسّسنا بحاجتها إلى مزيدٍ من الإيضاح.
- ٩ - أبقينا النصّ مُجزّأً إلى فُصولٍ، حسبما ورد في الأصل، مُقتصرين على تَفْكير الفُصول، وتزويدها بعلامات الترقيم اللازمة.
- ١٠ - قدمنا للنصّ بدراسة تناولت أبرز القضايا المتعلقة بتوثيقه وموضوعه وأسلوبه ومنهج إخراجهِ وتحقيقهِ.
- ١١ - أفردنا للمصادر والتعليقات ثَبْتاً مُوحداً في نهاية البحث.

النص

(فصل)

فأما التعجبُ مِنْ مَنَاقِبِكَ، فقد نَسَخَهُ تَوَاتُرُهَا // (١٨ ظ) فصارت كالشيء القديم، قد نُسِيَ به، لا كالبديع يُتَعَجَّبُ منه، وأما ما يحدثُ لك فلا يخلو مِنْ مَنَّةٍ، إذ كنا نعتدُّ بِسَعَادَةِ جَدِّكَ، وَإِنْ كُنْتَ كما تقولُ العامة: لا تُكذِّبُ الْمُثْنِي عَلَيْكَ.

(فصل)

وأما ذكرُ فضائلِ والدك الذي أشرقَ بِفَضْلِهِ قلبي إشراقاً، وسقطَ الشكُّ فيه عن نفسي، فإنِّي لو وصلتُ لِسَانِي بِالسُّنَنِ البشريِّ لِذِكْرِهِ، لتناهى بي الفراغُ مِنَ الثناءِ عليه، فأنا مُرْتَظِمٌ فِي لُجَّةِ بحرِ التَّقْصِيرِ عَنْ كُنْهِهِ، وليس إقْراري بما أَقَرَرْتُ بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَنْ دَرْكِ بُلُوغِهِ، بما يعي مِنْ تَتَابُعِ الإطْنَابِ فِيهِ، بِقَدْرِ طاقتي واجتهادي مِنْ نَشْرِ مَنَاقِبِهِ. وكيف وأُنَى السَّيْلُ إِلَى تَفْضِيلِهِ بِالكَرَمِ، وَلَسْتُ رَائِياً مَنْزِلَةً فَضْلُ أَنْسَبُهَا إِلَيْهِ، إِلَّا وَجَدْتُهَا فِي الْفَضْلِ دُونَهُ؟!

ووجدتني مُدْبِذاً حَيْرَانَ بَيْنَ مَسَالِكِ فضائله، فلا أنا نائلُ صِفَةٍ باهرِ فضله، ولا // (١٩ و) طَيِّبَةُ نفسي عن الإمساكِ عن تَفْرِيطِ فِيهِ، فكما مَلَكَتِ الرَّأْيَ بَيْنَ النُّكُوصِ عَنْ مَدِيحِهِ، وَبَيْنَ (١٧٣) التَّشْجُعِ الَّذِي لَا تُوضَعُ الْكُتُبُ إِلَّا بِهِ، أَحْبَبْتُ أَنْ أُحْلِيَ كِتَابِي بِكَلِمَاتٍ أُتِمُّ بِهِنَ مَنَاقِبَهُ، وَإِنْ كُنْتُ مُقْصِراً عَنْ كُنْهِ فَضَائِلِهِ. وماذا عسى أَنْ أَقُولَ فِيمَنْ تُنَازَعُنِي مُنَاطَرَاتُ مُحَاسِنِهِ، حَتَّى بَقِيتُ لَا أَدْرِي بِأَيِّ مَعْنَى مِنْهَا أَبْدَأُ مِنْ صِفَتِهِ؟! مع خوفي أَنْ لَا يَقَعَ قَوْلِي مِنْ سَامِعِيهِ مَوَاقِعَ التَّصْدِيقِ، إِذْ كُنْتُ وَاصِفاً مَنْ لَا يُمَكِّنُهُمْ فِي الْإِنْسِ وَجُودُ مِثْلِهِ، وَأَيْنَ وَلَا أَيْنَ لَهُمْ أَنْ يَجِدُوا نَظِيرَهُ، وَهُوَ الَّذِي تَسْرِبِلُ النِّهْيِ، وَارْتَدَى التَّقَى (١٧٤)، وَتَعَطَّفَ بِالْحَجَى، وَانْتَزَرَ بِالْحَلَمِ، وَتَنَوَّجَ (١٧٥) بِالْوَقَارِ، وَتَطَبَّعَ بِالْجُودِ، وَتَنَبَّلَ فِي الْمَجْدِ، وَاعْتَذَى بِالكَرَمِ، وَوَشَّحَ بِاللُّبِّ، وَحَكَّمَ بِالْفَضْلِ، وَنَطَقَ بِالْعَدْلِ، وَرَسَخَ فِي الْفَضْلِ، فَمَاءُ الْحَيَاةِ مُنْحَدِرٌ مِنْ أَسْرَةٍ وَجْهِهِ، وَأَغْصَانُ الدَّمَائَةِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَعْطَافِ شِمَائِلِهِ، وَسَمَاءُ // (١٩ ظ) السَّخَاءِ مَطِيرَةٌ مِنْ فُرُوجِ أُنَامِلِهِ، وَلَالِيُ الْعِلْمِ مُتَنَاطِرَةٌ مِنْ بَلَاجَاتِ مَنْطِقِهِ.

تراه مُبتسماً عن سِنِّ المودة، وقلْبُهُ باكٍ بعَيْنِ الرأفة والرحمة، ليست له دُونَ النَّزَاهَةِ نَهْمَةٌ، ولا في غير المُسَالمة رَغْبَةٌ، تسامى عن اللذات بالصَّيَانَةِ، وتَعَطَّلَ عن الشَّهَوَاتِ بِالزَّهَادَةِ، واشتمل بكلِّ مَكْرَمَةٍ، فأصبح نسيجَ وَحْدِهِ، لا يُقَرَّنُ به نظير، ولا يُعْرَفُ له شَبِيه، قد لقي كلَّ خِلَافٍ بضدِّه، وأعدَّ لكلِّ داءٍ دواءه، وَلَيْسَ لكلِّ دَهْرٍ لِبَاسُهُ، ووضع لكلِّ أمرٍ موضِعَهُ، وفتحَ أَقْفَالِ المُشْكَلَاتِ بحقائقِ البَيَانِ، وكشفَ أَغَالِيظَ الجدلِ ببراهينِ الحُجَجِ، وأوضحَ مُتَشَابِهَاتِ الفلسفةِ بدلائلِ الحِكمةِ، مُفَهِّمٌ إذا قال، فَهْمٌ إذا سَمِعَ، يسبقُ بالفهمِ السَّمْعَ، حتى كأنَّ فَهْمَهُ سَمْعُهُ، إِنَّ خَاطِبَهُ أَحَدٌ بغيرِ ما في قَلْبِهِ، استدلَّ على ضَمِيرِهِ بظَاهِرِ حَرَكَاتِهِ.

قد قَيَّدَ الكلامَ بالبِشْرِ، وزَجَرَ غَادِيَةَ اللُّومِ / (٢٠) بالتذكُّرِ، وتأمَّلَ أحاديثَ غَدِ، واستقبلَ صَوْلَةَ القُدْرَةِ وَسَطَوَةَ الأَعْمَارِ^(١٧٦) بنجايةِ الرَّأْيِ وإيثارِ التَّثَبُّتِ، وعارضَ خَوَاطِرَ السُّوءِ بالنظرِ الثَّاقِبِ، وأيقنَ بما يَبْقَى له مِنَ الذِّكْرِ، ويُحَرِّزُ له مِنَ الأَجْرِ، ويشيعُ له مِنَ الذِّكْرِ والشُّكْرِ.

فأَيُّ غَايَةٍ في العلمِ لم يَأْتِ عليها، أم أَيُّ مَنْزِلَةٍ فَضِّلَ لم يستكملها، أم أَيُّ مَرْتَبَةٍ مُرَوِّدَةٍ لم يبلغها، أم أَيُّ دَرَجَةٍ مَدَحَ لم يبلغها، أم أَيُّ مَرْتَبَةٍ قَصَرَ عنها، أم أَيُّ أُحْدُوثةٍ صدقَ لم تُنسَبَ إليه، أم أَيُّ خُطَّةٍ فَضِّلَ^(١٧٧) لم يَفِ بها، أم أَيُّ جَادَةٍ برَّ لم يسلكها، أم أَيُّ عَطِيَّةٍ خَيْرٍ منعها؟! وهو الذي عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، واستشعرَ خِيفَتَهُ، واعتصمَ بِطَاعَتِهِ؛ فَتَزَهَّدَ في النَّفِيسِ مِنَ المتاعِ، ورضي مِنَ الأقْوَاتِ بالمُسْكِ، وحالفَ العِفَافَ، وَقَنَعَ بالكِفَافِ، واجترأ^(١٧٨) باليسيرِ مِنَ الكِسَاءِ، وارتوى بالظَّمَا، وَقَمَعَ الهَوَى، وأثرَ الآخِرَةَ على الدُّنْيَا، وَمَلَكَ الغِيْظَ فَكْظَمَهُ، وَلَفَّظَ الحِرْصَ فَكْتَمَهُ.

هو // (٢٠) ظ) بأمر أصغرٍ ولَدِهْ أعنى منه بخاصةٍ نفسه، إِنَّ أَوْعَرُوا به أسهل، وإنَّ تَصَعُّبُوا له تذلل، وإنَّ خَشِنُوا عليه لان، وإنَّ شَاغَبُوهُ سَكَن، يتكلمُ وكأنَّ المُتَكَلِّمَ غيرُهُ، في سَكُونِ حركته، وَهُدُوءِ جَوَارِحِهِ، وَلِينِ كَنَفِهِ، وانخفاضِ جَنَاحِهِ، وَأَصَالَةِ عَقْلِهِ. فأحمدُ المُنْعَمَ عليَّ برويته التي قد كان إفراطُ السرورِ بها يُنْغِصُ عليَّ ما أوقعَ مِنْ حَادِثٍ توديعي إياه، وفراقِي له، وتخوفي كَوْنِ الفَجْعةِ به. فلا زالَ مِنْ تراخي عُمُرِهِ، ومُهْلَةٍ بقاءِهِ، وتنفيسِ

أجله، ودرك أمله، في صالح عمله، ومُطاطلة الأيام في سَلَامَةِ رُوحه وبِدَنه، إلى انقضاء الدهر، ومُرافقة الصالحين في جَنَّتِه التي وَعَدَ الرحمنُ عبادهُ بالغيب. ولا زال رخيُّ البال، كثيرُ الصديق، قليلُ العدو، سليمُ الدين، نقيُّ العَرَض، محمودُ الفِعال، جميلُ الأحداث، في حياته وبعد وفاته، ووصلَ له الكرامة/ (٢١ و) العاجلة، بالنعمةِ الآجلة، والحمدُ لله الذي بلغني مُدَّةَ زمانه، وقربَ مكاني من مكانه، وجعلني من إخوانه وأعوانه، وأوقع ناظري على شَخْصِه، وأمسُ كفي بكفه، وأصارني من المُتأسِّين به، والمتأسِّفين عليه، والمُقتبسين منه، ومن الآخذين عنه، فأنا الذي تراءيتُ في ديني تباشيرَ السَّعادة، وتعجَّلتُ في دُنْيائي هذه الأُمْنِيَّة.

وقد أشبهت - أبقاك الله - شيخَكَ في خَلْقِه وخُلُقِه، وفِعْلِه وعِزِّمِه، مع الشَّهادة الكاملة، والنَّفْس النامية، ومرجعُ الأفعالِ إلى الطِّبائع، ومدارُ الطِّبائعِ على جُودة النَّفْس، وقُوَّةِ المُنَّة، وبها تتمُّ العزيمَةُ، وتنفَّذُ البصيرة.

(فَصْل)

اعلم أن المدح لا يكونُ مدحاً حتى يكونَ صدقاً، ولا يكونُ صدقاً حتى يكونَ حقاً، ولا يكونُ نافعاً حتى يكونَ محفوظاً مدروساً، موثقاً // (٢١ ظ) مقبُولاً، ولا يَلْتَزِقُ بالمدوح، ولا يَلْتَحِمُ بالمدكور، حتى يكونَ له مُوافَقاً وبه لائقاً، ولا يكونُ أيضاً تاماً كاملاً، ولكلِّ خِصالِ الخيرِ جَامِعاً، حتى تكونَ مناقبُ المدوحِ لَعُيُونِ الناسِ ظاهرةً، وخِصالُ المدوحِ الموصوفِ لِعُقُولِهِمْ مُنْجَلِيَّةً. ومتى كان فضلُ المرءِ مُستنبطاً، ومعنى كَرَمِه مُستخرجاً، احتَمَلَ التَّأْوِيلُ فيه، وجاز فيه الاختلافُ، وغَرِقَ في الخُصُومات، واستهلكتها المُجاذبات^(١٧٩)، واحتيج في شُهُودِه إلى المُسألة، وفي مُدعيه إلى نفي الطُّلبة، ولستُ واجداً ذلك إلا فيه، ولا قادراً عليه إلا عنده، فإنَّ فضلَهُ قد قهر المُعاند، وغَمَرَ الحاسِد، واضطُرَّ الغبيُّ إلى معرفتِهِ، والبكيُّ إلى حُسْنِ وصفه.

كان النابتي^(١٨٠) يذمُّه، فإذا ذكر ذلك الخارجي أعانه، وإن فُوض إلى الرافضي صَوَّبَ رأيه، وإن مال الحاسدُ والجماعيُّ شايعة، فلما أوسعهم خيراً، وملاً / (٢٢ و) صدورهم سروراً، وعمَّ الآفاقُ نفعه، وشاعَ في الناسِ رِفْدُه، وصار عائبُهُ لا يجد مُستَمِعاً،

والمستمع لا يجدُ عائباً، قطعهم اليأسُ، وأمات خواطرم ظهورُ الفضل، وصار الذامُ مادحاً، والصامتُ ناطقاً، والساخطُ راضياً، والناهي داعياً، والذي يحسُدُهُ صار يغبطُهُ، والذي كان يعدو عليه يعدو معه، ثم صار إحسانُهُ حليَّةً لحُبِّه، وحُبُّه علةٌ لاستحسان قوله، فلما غلب الحقُّ وظهر الحكم، وصار الباطلُ سَقُوراً^(١٨١)، ولسانُ الحقِّ مبسوطاً، لم يبقَ على ظهرها خطيبٌ مُصنِّع، ولا شاعرٌ مُفلق، ولا عابدٌ مُخَبَّت، ولا فقيهٌ مُقَدَّم، ولا رئيسٌ مُقَدَّر، ولا مُعلِّمٌ مُرشد، ولا رِيضٌ^(١٨٢) مُستترشد، ولا بكىءٌ مُفحم، ولا خَطَلٌ^(١٨٣) مُهذر، ولا جاهلٌ غبي، ولا عاقلٌ ذكي، ولا خاصيٌ ولا عاميٌ، إلا وهو مُقرٌّ بحقه، ناطقٌ بفضله، مُجتهدٌ في وصفه، مُرتغبٌ إلى الله في طولِ بقائه، ودوامِ نعماته.

وكيف لا يعدلُ جميعَ أهلِ عصره مَنْ هذا // (٢٢ ظ) صفةُ قدره^(١٨٤)، وكيف لا يفي بالجميعِ مَنْ هذا أثره في الجميع، وكيف لا يعدل جميعهم وفي أكثرهم، وليس على ظهرها أحدٌ يتوقع الفرَجَ إلا مِنْ قِبَلِهِ، ولا يستريحُ إلا بذكره، ولا يرجو النُجْحَ إلا على يديه، ولا يَفْزَعُ في المُهمِّ إلا إليه، وكيف وليس على ظهرها يدٌ بأسطة بالخير إلا يدهُ، ولا لسانٌ يُشير بالعُرفِ إلا لسانُهُ، ولا مالٌ موهوبٌ إلا مالهُ، ولا جاءَ مبذولٌ إلا جاهُهُ؟

(فَصْل)

وقد كان الجودُ يُتنافسُ فيه، والمعروفُ يُتسابقُ إليه، وكان التباري لهم عوناً، وحبُّ التغالبِ لهم رِفْداً، وسُكْرُ الرجالِ لهم باعثاً، وخوفُ الذمِّ لهم رادعاً، ومأثورُ الحديثِ لهم زاجراً، وهم اليوم في زمانٍ قد تَخَلَّى أَهْلُهُ مِنَ الْمُبَارَاةِ وَالتَّسَابُقِ إِلَيْهِ، بل قد زهدوا فيه، وأضربوا عنه، وأجمعوا على تركه، وتواصوا بِالزَّرَايَةِ عَلَى أَهْلِهِ، لا يحفلون بالعيب، ولا يشعرون / (٢٣و) بمواقعِ الذمِّ، يُسَمُّونَ الْبَخِيلَ مُصْلِحاً مُقْتَصِداً، والجوادَ جاهلاً مُسْرِفاً. فأمَّا أَنْ يَحْفَظُوا مَائِثَةً، وَيَهْشُوا لِسَمَاعِ مَكْرَمَةٍ، فَإِنَّ ذَاكَ قَدْ صَارَ مِنَ الْمَتْرُوكِ الَّذِي لَا يُطْلَبُ، وَمِنْ الْمَرْفُوضِ الَّذِي لَا يُرَادُ.

وقد كان الخاطرُ لِعُيُوبِهِمْ مُخْتَاراً فانقطع سببُهُ، ومزودهم^(١٨٥) في الفرط فاجتث أصلُهُ، فقد أصبح معه وحشةُ الْوَحَادِ، وغربةُ الْإِنْفِرَادِ، ثم لا تزيدُ الْأَيَّامُ عَقْدَهُ إِلَّا شِدَّةً، وعزْمَهُ إِلَّا صَرَامَةً، ورغبتهُ إِلَّا قُوَّةً. فمن عَرَفَ كَيْفَ تَصَاعَفَ الْأَقْدَارُ، وَبَادَابِ الرِّجَالِ،

وموازنة الأعمال، قضي له بالغاية، وحكم له بأقصى النهاية، وكيف لا يكون كذلك، وقد انفرد بالكرم، في دهر اللؤم، وتوحد بالجوهر في زمان الإمساك، وصار الدهر عقيماً، والزمان عاجزاً.

فأما إذا أسى الأصدقاء، ووصل الأرحام، وجبر الأيتام، وحث على الخير، وذكر المعروف، فإن ذلك ظاهر في المجالس، شائع // (٢٣ظ) في المحافل، مستفيض في الخلق. لقد أصبح وليس بخاف عليه الإفراط في الخير، والمجازة في القدر، وأن يكون هواه في الجود يحسن عنده السرف، واعتياده لبلوغ الغلبة يخرج من النهاية، وأن يحمل على نفسه فوق الطاقة، ويسألها أكثر من المجهود، ولا يدع من ماله ظهيراً لغده، ولا لحوادث يومه، هذا رأي العامة.

فأما العامة، فإنها تعلم أنه أوسع علماً، وأثبت حزماً، وأرجح حليماً، وأعدل حكماً، وأملك لشهوته، وأقوى على طبيعته، وأشد تحفظاً، وأحسن تشبهاً، من أن يحركه التفريط، أو يغلبه الإفراط، وأن من كان محله من الإسلام محله، وموضعه من الأعراق الكريمة موضعه، ومنشؤه في الأدب الصالح منشأه، لا يجوز أن تغلبه طبيعته، أو يموه له سهوه، ولا يشغله اهتمام بما باشر منها عن العناية بتدبير ما غاب عن بصره؛ لأنه قد مثل بقلبه صورة غائب أصحابه / (٢٤و) في مثال من هو مشاهد له، همأ بأمره، وبحثاً عن دفينه، وعلماً بأقل قليله، ولم يكن مانعه من أن حركته يقظة لبه، ولطافة فطنته.

ولو رأيت مفضلاً في ثوبه، مبتدلاً في أهله، وفي غمار السوق، ودهماء الرعية، أو غافلاً غير محتفل، أو ساهياً غير مكترث، لعلمت^(١٨٦) أنه قد هوى لعظيم، وعبى لجسيم، وأن له شأنًا وإن جهلته، ونبأ وإن أغفلته.

وليس في الأرض منظر أدل على مخبر، ولا علانية أدل على سريرة، من منظره على مخبره، وعلانيته على سريرته، ولا يحتاج فيه إلى قائف^(١٨٧)، ولا يستعان^(١٨٨) عليه بمترس، ولا يمسك عن القضاء حتى يجرب، وعن الحكم حتى يستثبت. وليس يكون بالفضل بارعاً، ولإخصال الخير جامعاً، حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، والغبي والذكي.

وإن كان قتلُ بابك^(١٨٩) فتحاً عظيماً، وهزيمةُ الطاغية^(١٩٠) نصراً // (٢٤ ظ) عزيزاً، وفتحُ عمورية^(١٩١) نفعاً كبيراً، فإن الذي عمَّ الإسلام من نفي التشبيه، وظهور التوحيد، وقمع البدع، واجتماع الكلمة، والوفاق على السنة، وتعليم الجاهل، وتثقيف الأخرق، وإيناس الشارد، ورد المعاند، ومودة الدَّهْماء، وإذاقة الناس طعم الألفة، وتعريفهم منافع الأمن وعز التعاون وقوة الاجتماع، وإيناس صدورهم، وإيداع صدورهم الهيبة، وإخراجهم من الوحشة إلى الأنسة، وخلع قلوبهم بالترهيب، واستمالة أهوائهم بالترغيب، وتعديل طبائعهم بها، وتسوية خواطرهم بتعديلهم وتقويمهم، وقمعهم بالحق، وإحيائهم بالعدل، وفتح أذهانهم بالحجة، وتفقههم بالكتاب والسنة، مع الحذق بالتعليم، وتنفيرهم من التقليد، وجمعهم - على تفقههم - الاحتجاج للتوحيد / (٢٥ و)، أعم فضلاً، وأظهر أثراً وأكمل، وكل في الغاية، وليس لكل غاية وراءها غاية، [و] ليس كل عظيم فوقه عظيم.

وما ظنك بثوب يسديه أمير المؤمنين، ويدبره ابن أبي دؤاد، وما ظنك بتدبير فصل من المعتصم بالله، وقام به أبو عبد الله^(١٩٢)، وما ظنك بصواب فتقه معصوم، وحق نهجه موفق، وعلى الأعراق تجري الأخلاق، وعلى قدر الأصل يكون الفرع، ومتى كرم الشجر طاب الثمر، ومتى صح الغيب صحت الشهادة، ومتى زكت السريرة زكت العلانية. والناس بين معتصم بالأصل، ومستظل بالفرع، وبين معطى مستزيد، وطامع منتظر، وشاكر داع، ومثن راج، ومضمر للود مخلص.

على أن نصيبه في فتح عمورية معروف، وموضع غنائه مكشوف، وتدبيره في شأن بابك موصوف، فقد شاركهم في مالهم، وبأن منهم فيما ليس له، وكل شيء لغيره فله فيه حظ وسهم وحق وسبب، وكل شيء له // (٢٥ ظ) فليس لأحد فيه مقال ولا متعلق ولا دعوى ولا طلب، ولا على أحد شبهة.

أيمن الناس نقيبة، وأعظمهم بركة^(١٩٣)، وألينهم كنفاً، وأحسنهم بشراً، وأنصفهم قولاً، وأكرمهم فعلاً وعفواً، وأقلهم حسداً، وأخضعهم عند الحق، وأحسنهم تثبناً عند الغضب.

(فصل)

وما زال موسوماً باللين والشدّة، والمنع والبذل، والتقريب والتبعيد، وبالعفو الهنيء، والعقاب المقتصد، إن وعد وفى، وإن توعد استثنى، وإن رضي أعطى فوق المنية، وإن غضب حكّم بالكتاب والسنة، يعلمهم وكأنه يتعلم منهم، ويعطيهم وكأنه يستحذيه^(١٩٤)، ويؤدريهم وهو القادر دونهم، حتى استوثقوا وانقادوا وسامحوا وأنساقوا، وتآزر^(١٩٥)وا على الطاعة، ونصبوا لأهل الخلاف والمصيبة، حتى صفا الدين، وحتى / (٢٦و) صارت الشبهة أثلاثاً: إما منافقاً مقصعاً^(١٩٦)، يخاف من ظلمه، ويفزع في يومه. وإما مدهناً مستعبداً، أعطى القياد، وسامح بعد النفار، وخضع بعد الكبر. وإما تائباً مخلصاً، أبصر بعد عماه، وعرف باب هداة.

ثم الذي عمّ البلاد، وشمل به العباد، من منع الظلم، ونصرة المظلوم، وإخراج الغلّ من قلوب المقهورين، والغي من قلوب القاهرين، حتى عاد الحق عزيزاً، والباطل ذليلاً، والفتن مقموعة، والأهواء مرفوضة، والشبهة ظاهرة، والحجة قاهرة، والسبل آمنة، والدنيا ساكنة، والأطراف محفوظة، والبيضة^(١٩٧) ممنوعة، والنفوس راضية، والرؤوس خاضعة، والعيون قريرة، والآمال فسيحة، والأسعار رخيصة.

ولله در ملك اختاره، ما أحسن ما اختاره، ولله در خليفة اجتباها، ما أكرم ما اجتباها، متى سمعت بنسيج وحده، أو بواحد عصره، أو بمنقطع القرين، فاقض فيه // (٢٦ظ) بأنه المعني والمستحق لهذه الأسماء، ولا يلتفت إلى معنى القاصد وتوجيه المسمى، فقد يغلط الناس في الأسماء كما يغلطون في المعاني، ويقولون على هذا أهواءهم، ويتركون ما هو أولى بهم، وإنما هذه أسماؤه في الحقيقة، دون جميع الخليفة، فهو^(١٩٨) نسيج وحده.

هو أحمد بن أبي دؤاد، لم يزل هذا الاسم عارية عند جميع الأجواد، ومطلوباً على أفواه الشعراء، وضائعاً^(١٩٩) على السنة الخطباء، فإذا سميته فقد أعطيته ما له، ووفيته حقه، وعدلت عليه في الحكم، ورحمته في الظلم، ومنعت المكتسبين من الاسم؛ لأن من سمى الناقص وافراً، والدون كاملاً، والمشتك خالصاً، فقد كذب إن كان عالماً، وأخطأ إن كان جاهلاً. ولا يكون الاسم تام / (٢٧و) الدلالة، نقياً من الشبهة، حتى يطبق المعنى، و يلتقم

الشيء المسمى، فلا يَفْضَلُ عنه، ولا يَقْصُرُ عن شيء منه، ولا يُشَبِّه شيئاً سِواه، ولا يجري في معناه.

وإنَّ عابه كونه في عَصْرنا، لقد زَيْننا بكوننا في عصره. ولئن نَقَصَهُ أَنْ نكون نحنُ الشاكرين له، لقد زادنا أَنْ كان هو المُنْعَم علينا. ولئن قَصَرنا فيما يجبُ له مِنَ الشكر، إنَّه لمجتهدٌ فيما لا يجبُ عليه مِنَ الإنعام. ولئن كان يَلْقَى مِنَ تقويمنا عَنَاءً وكُلْفَةً، إِنَّا لنجدُ تقويمه رِخاءً وشِدَّةَ رَاحَةٍ. وما ظنُّكَ بجليسٍ يُتَظَلَّمُ إليه مِنْ إنصافه!! ويُوجِبُ عليه الفضلُ في جميع حالاته، يغضب إنْ قَصَرَ دون جهده، أو ترك شيئاً دون غايته.

وقد رأينا الرجلَ يُفني شقيقه وينسى صديقه، ويُفني رفيقه وينسى خليفته، ويُفني صهره وينسى جليسه، ويُفني جاره // (٢٧ظ) وينسى معرفته، ويُفني ذا الحرمة القديمة، وينسى ذا الحرمة الجديدة، على أَنَّ الحرمة لا تعظمُ بطول أيامها، كما تعظم كعظم صاحبها، وهذا بابٌ يغلطُ فيه كثيرٌ من الناس. ويُفني المؤملُ ذا الشفاعة وينسى مَنْ لا شفيعَ له إلا حُسن الطاعة، ويُعطي إذا هَوِيَ، وإنْ وافق الباطل، ويمنع إذا كَرِه، وإنْ وافق الحقَّ.

وقد تجدُ الواحدَ يُحرِّمُ على الخِلافِ في النُّحلة، وعلى الخِلافِ في النِّسب، وعلى حُبِّ الأمصار، وعلى تَذَكُّرِ الأحقاد، وعلى عداوةِ الآباء والأجداد، وعلى أمرٍ كان في الصِّبا والحدّاث، في أيامِ الجهلِ والغرارة، وعلى الكلمةِ تَقَرُّطٍ مِنَ الصديق، وتسبُّقِ دونه الجليس، فيسقي بالحرمان، ويرحلُ بالصميم، ثم يجعلُ حرمانه إياه ومنعه له / (٢٨و) مِنْ خصائله المحمودة، ومناقبه الممدوحة، ودليلاً على شِدَّةِ الشكيمة، وثباتِ العزيمة، وإنَّما يتقبلُ على البذل، ويلتمسُ العِللَ على المعروف، ويجزَعُ أحدهمُ مِنْ لُزومِ الحجج، وأخذِ الحقِّ بالمُخَنَّق^(٢٠٠)، فيجلبُ لنفسه علةً ويسميها حُجَّةً، ويسوي لها عذراً، ويموه لها مذهباً؛ ليستريحَ مِنْ قهرِ الحقِّ ولُزومِ الحِلْم. وربما لم يرضَ حتى يحتجَّ بها عند أصحابه، ويشكره النَّاسُ على سَماعه.

وقد يُواسي الإخوانَ مَنْ ربما يَضْجُرُ بالإخوان، وقد يُكثرُ مِنَ الإحسانِ مَنْ ربما امتَنَّ بالإحسان، وقد يُحبُّ الصَّنِيعَةَ مَنْ يُخطئ موضعَ الصَّنِيعَةِ، وقد يُعطي اللهَ مَنْ ربما

أعطى لغير الله، وقد يهب الكثير من ربما أدخله العجب، ومشى الخيلاء، وغمط الدُّخلاء، وأساء بالخطاء. وقد يجود بالجزيل من ربما يبخل بالقليل، وقد يجود // (٢٨ظ) بالمال من يبخل بالطعام، ويخطئ في الكلام، ويجود بجاهه من يمنع الناس من ظله، ويجود بما يحب من لا يعطي إلا ما لا يحب، لا يتعاطى التفضل، ولا يهب بالتفضل.

وربما فخر الجواد بفضلِهِ، وخبر عن مذهبه، إمّا افتخاراً على ضده، وإمّا صرحاً عن نفسه، وإمّا تقريباً لجاحدِ نعمة، أو تذكيراً لنا في أحدى، واستمالةً لهوى، أو تنفقا عند السلطان، أو تهويلاً في سفر، وربما كان كذلك من ضيق الصدر، وسُخفِ الحلم، وفِرطِ العجب، والجهل بالعيب. وربما أنفق أحدهم المال الكثير والقدّر الخطير في البناء، وفي الفراش والآنية والكسوة، وفي الأطعمة والأشربة، وفي الرياحين والفواكه، وفي الظرف والعطر، وفي عشق القيان والشغف بالعبيد، وفي الجوارى والخصيان، وفي المراكب والشاكرية^(٢٠١)، وفي المدعاة على / (٢٩ و) المباراة، وفي السفه والمباهاة، حتى يؤتى على آخره، مع عظم خطره، وكثرة صنوفه، ليس فيه عتق رقبة، ولا ﴿إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكيناً ذا مقربة﴾^(٢٠٢) لم يصطنعوا أجراً، ولا استرهنوا شكراً، ولا أنحروا أجراً، ولا أحرزوا ذكراً، ثم عَفُوا أولادهم من وجهين، وحرّموا من طريقين: أفقروهم إلى الناس، ولم يحببواهم إلى الناس، بل بغضّواهم إلى الناس، بفضل بغضهم لهم، وأحنقواهم عليهم، بفضل حنقهم عليهم. هذا، وصديقهم ظاهر الحلة، رث الهيئة، ونديمهم مُنقذُ الجربان، سخيْفُ الطيلسان^(٢٠٣)، مُرَقَّعُ النعلين، مثقوبُ الخفين، وجارهم غضبان، ويسببهم لهفان. على هذا طبقاتُ الناس وأخلاقُ جميع الأمم، خلا من لا نحتاجُ إلى استثنائه // (٢٩ ظ) وذكره، وإلى اشتراطه وحصره، من الخلفاء الراشدين، وأئمة المسلمين، والسلف الصالحين المتقدمين.

إلا أن ابن أبي دؤاد، فإننا لم نذكر فناً من الخير، ولم نصف ضرباً من الكرم، إلا وهو فيه بحدّافيره، ولا وصفنا باباً من الشرّ، ونوعاً من اللؤم، إلا وهو مُجانبٌ له، وأسبابُهُ مُنقطعةٌ دونه. فمن الناس من يعطي من غير مسألة، فذاك الجمهور الأعظم والسواد الأكبر، والخصلتان الأوليان، قد كانتا في الخواص، وموجودتين في الأقل، ثم تقطعت أسبابُهُما، وتجدّمت عراهُما، وباد أثرُهُما، ومات ذكرُهُما، وذهب من يحنّ إليهما، ويصف

حالهما، ويندبهما، ويبكي عليهما. ونحن لا نصيب^(٢٠٤) من يبكي عليهما وينصب لذكرهما فضلاً، أو يحسن بهما ظناً.

وأبو عبد الله يعطي قبل السؤال، وبعد السؤال، ويجود بكل علق نفيس، ويحتقر كل ثمين، ويمتهن كل / (٣٠) و) خطير، ويهوى الحق ويستحليه، ويستخفه ويستثنيه، ويستثقل الباطل ويجتويه^(٢٠٥). قد جعل ترك الباطل صناعة، وحب الذكر تجارة، وطاعة الله شعاراً، ومحبة الناس دثاراً، وبين الجواد وحسن الظن نسباً، وبين الكريم وسلامة القلب سبباً، وبين حسن الظن والاعتزاز صداقة، وبين السلامة والغبابة قرابة، كقرابة السلامة من الكرم، وكصداقة الجود لحسن الظن. وهذه الأسباب أقوى من الأرحام، وأمتن من الرضاع، فإن لم يكن الكريم ذا دربة، وذا تجربة وفطنة، ولم يكن الجواد حازماً، وبأسباب التهم عالماً، أهلكه جوده، وأعطبه كرمه، بل لا يقول إن الجواد يهلك، وإن الكريم يعطب، ولكن يقول: أهلكه فقد حارس الكرم، وعدم صابر الجود لا التحرم.

وأبو عبد الله جوده في وزن حزمه، وكرمه في مقدار تحفظه، فأمره قائم مستو، وإلى // (٣٠) ظ) كل غاية منته، وقد قال الأولون: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حقه في أغلب خصال الشر عليه، وأبو عبد الله ليس في خصاله فضل عن عقله، بل في عقله فضل عن خصاله^(٢٠٦). نقص من عقولهم، وإصلاح ما فسد من طبائعهم، ورد ما فرط إلى اعتداله، وحد ما زاد على اعتداله ومقداره.

وذكر المغيرة بن شعبه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال: كان والله أعدل من أن يخضع، وأفضل من أن يخدع. ولولا أن من السرف في المحبة، ومن الخطل في المدحة أن نصف^(٢٠٧) غير عمر بصفة عمر، كما أن من السرف أن يلحق بعمر من كان بعد عمر، لقلنا هذه صفته ونعته وحليته. على أنا لو ألحقناه بقدره، وحكنا له بمثل فضله، لخرجنا من أدبه، ولقضينا كل أمره، ولاستوجبنا منه العقاب الشديد، والاطراد البعيد.

وهو، وإن كان لا يخدع لفضله، فإن اللقطة بعينه، فلا / (٣١) و) ينبغي أن تصف به وزيراً، ولا سيّداً كريماً، إلا بأن ينقص لفظه، أو يحول نظمته، إذا كان - أيضاً - المعنى به لائقاً، ولخصاله موافقاً. وهذا فصل من فصول ما بين الأئمة والوزراء، ومن الفروق التي

بين السادة والأمراء والخلفاء، وفَضِّلُ ما بين الأئمة على الوزراء كفضل الوزراء على الدهماء، وفضلُ الأنبياء على الخلفاء فوق فضل الخلفاء على الوزراء. ومن عرف الأقدار قلَّ غلطه، ومن فهم الضروب صحَّ حكمه، ومن لم يحاسب نفسه إذا حمد، ولم يحصل قوله إذا هجاه، إذ جهل الكتاب أثبت من جهل اللسان، وإن كان اللسان أكثر خطأ، فإن القلم أبقى عاراً، وأدوم خزيًا، وأبعد في الآفاق صيتاً، فاحذر مع وضع الكتاب آفة الخلو، وبرائق الوحدة؛ فإنها تورثك الثقة بنفسك، والاسترسال إلى غيرك عند غيبة الخصم عن عينك، وارتفاع ذكره عن وهمك. ودواؤه أن يظن عند كل لفظة، و ((٣١) ظ) عند كل معنى وخطرة، أن الناس كلهم علماء، وأنهم جميعاً لك أعداء، وكلهم فارغ إلا من النظر فيه والتصفح له، وأنهم إن نظروا فيه نظروا نظر من لا يبسط عُذرك، ولا يحبُّ رشدك، ولا يُعجبُ بكلامك كعجبك، ولا يجدُ به كوجدك.

وأنت إن نظرت فيه نظرت بعين وامة^(٢٠٨)، وسمعت بأذن عاشقة، وإن تلقيتَه تلقيتَه بنفس قابلة، وطبيعة جاذبة؛ لأنه من لفظك، وفي معنى ولدك، ومنك فصل، واليك ينسب، وهو فرع أنت أصله، وحادث أنت أوله، فشفيعه مطاع، وسببه قوي، وقربته قريبة، ورحمه ماسة. وهو باب خدع، وموطئ زلق، والتحفظ منه شديد، ومعناه غامض، وحده خفي، وإن الفعل ليجفو عنه، فكيف الوصف؟ وإن الوصف لينبو عنه، فكيف العمل؟ غير أن من أعطى الجهد في التحفظ، واستعمل الهمة والتيقظ، كان ((٣٢) و) أقرب إلى السلامة، وأبعد من الآفة.

فأما أن يتقي من كل الفساد، ويصفو من جميع الكدر، فذاك ما لا يطمع فيه إلا جاهل مغرور، ومُعجب مغمو، والله ما هو ممن يماطل الراغب، ويأوغ الراجي التماس ضجره، واستنفاد قوي صبره، ليكون هذا النازل له، والمحجوج دونه، ولا يعرف صنيعه بالعذر، ثم لا يعرف النفاق، ولا الغش ولا الرياء، ولا الملق، ولا الحب، ولا الشره، ولا الزيادة. فأما ما ذكرت من الاستثقال وفرط الملل، ومن تمنيه قطع السبب، وحاجته إلى الجنائيات، فلولا ما يخاف من الشبهة على قلوب الضعفة، لكان الجواب به خطلاً، والرد عليه هذراً، ولئن^(٢٠٩) يكون الكلام ضاراً خيراً من أن يكون لغواً.

كيف يَقَعُ الاستثقالُ ممَّنْ^(٢١٠) هو أرقُّ من النسيم، وأخفُّ من الهواء، وأدقُّ مسلكاً من النار، وأعذبُ من الماء الزلال، ولا سيما من فلان، وهو معدنٌ // (٣٢ ظ) الفطنة، ويُنبِئُ المعرفة، ومُستنبطُ الذكاء، وغُرَّةُ الحكمة، وصاحبُ التمييز، والمُقدِّمُ في التحصيل، وداهيةُ الدهياء، وواحدُ الوزراء، ومَنْ لم يقل [قط]^(٢١١) بعد مُخاصمته، وطول مُنازعتِهِ لو كنتُ قلتُ كذا وكذا كان أفضل، ولو لم أكن قلتُ كذا وكذا كان أمثل، ومَنْ تنجلي أواخر حُجته مع أوَّلِ خواطره، ومَنْ لا تزال مواردهُ على وزنِ مصادره، وآخرُ فكرِهِ كأوَّلِ بدائِهِ!!

وكيف يَجْهَلُ مواضعَ الاستثقالِ من مواضعِ الاستخفافِ مَنْ يَعْرِفُ بالفراصةِ ما لا يَعْرِفُ بالتجربة، والقيافةِ ما تَعْجُزُ عنه المُعَاينة، ويبلغُ بالخطرةِ ما لا يبلغُ صاحبُ الفكرة؟! وكيف يُوصَفُ بالاستثقالِ مَنْ هو في طباعِ الحريقِ؟! وكيف يتغافلُ عن التعريضِ، ويُقيم على التقريرِ، ويُعرضُ عن الكِنَاية، وهو يتوقعُ الإفصاح؟! ومَنْ لا يُخالطُ العُظماءَ إلا بالشرط، ولا يُغَايرُ الكُبراءَ إلا على التحكيم، ومَنْ أدنى ما في شُرُوطِهِ أَنْ / (٣٣ و) يَعْتَذِرَ إليه، وهو المسيء. ومَنْ يَحْكُمُ بحُكْمِ الصبي، ومَنْ لم يزل؟ ومُذِلًّا وهو لا يعرفُ إلا التشديد، ومن لم يُعْطِ قط إلا بالتعظيم، ولا عُرِفَ إلا بالإكبار والتفخيم، ولا جَزَعَ من الوحدة إلى مُعاشرةِ كريم.. ومَنْ لم يأخذ جليسهُ بالتركُم، ويُبصره كيف التنزه، [و] يَعْرِفه حقائق الأنف، ومراتب الشرف، وخصائص الإخلاص، ولطائف الآداب.

ومَنْ قد جَمَعَ الفَخامة والحلاوة والظرفَ والمروءةَ والنُسكَ والفتوةَ، ومَنْ يُعْطِي الانقباضَ نصيبَهُ الموفرَ، كما يُعْطِي الاسترسالَ حقَّهُ الموظفَ، ويُعْطِي صديقَهُ النافلةَ، ولا يَسْأَلُهُ الفريضة؟! [ولذلك يستحق كلَّ تفضيلٍ في الخلق والخلق، وفي العزيمة والفضل]^(٢١٢). هذا، ولم يحتل قطُّ على ما لك مع سَكُونِكَ إليه، ولا يَتَمَّ حديثاً مع مُفاوضتك إياه، ولا كَتَمَكَ عيباً فيه، مع غفلتك عنه، ولا طَمَعَ فيه طامع، ولا زاره زائر، ولا ذَهَبَ عنك إلا بقدر ما أرسلته من يديك، ولا أردتهُ // (٣٣ ظ) قطُّ إلا كان مُمثلاً بين عينيك.

وقد يُقالُ في الدعاء: نعوذُ بالله من صديقٍ مُطرٍ، ومن جليسٍ مُغرٍ، وقد علمتَ أَنَّهُ أبعدُ خلقِ الله من إغراء وإطراء، ومَنْ يسمعُ لما أسررتَ، ويفطنُ لما سترتَ، وَأَنَّهُ أَقلُّهم تكلفاً ودَحْساً^(٢١٣)، وعن أمورِ الناسِ تنقيراً ويحثاً، ويعد هذا، فإن شئتَ أَنْ تجدَ ذنباً وجدته، وكذلك إن شئتَ أَنْ لا تجده لم تجده، وكلُّ ذنبٍ إن شئتَ أَنْ تنساه نسيته، وإن شئتَ أَنْ

تذكره ذكرته، وليس الذنب إلا ما يصلح منه القلب، ولا يزال حاضراً للدهر، وإلا ما كان من قناع^(٢١٤) اللوم، فأما ما كان من غير ذلك، فإن الغفران يتعمده، والحرمة تشفع فيه:

دع ذا وعد القول في هـرم^(٢١٥)

أخرج إلينا أبقاك الله من هذا الدين، وأردد علينا هذا الحق، وقد أمسكنا عن التقاضي ما أمكن، وصبرنا على المعاودة والمواعيد ما صلح، وما بنا إليك حاجة، وبك غنى من الخوالة، وإن جاز أن يُقيم زعيماً بالنعمة جاز أن يُقيم لك زعيماً بالشكر، وإن جاز أن يؤمك ويحقق آمالنا غيرك، جاز أن نشكر غير المنعم، ونأمل غير المصطنع. وأنا أعيذك بالله أن تكون أول من سن هذه السنة، وشرع هذه الملة. وأعفنا من هذه المواعيد التي تمرض القلوب، وتقطع الأحشاء، وتُميت الأمل، وتُقرّب الأجل، فطالما أعفيتنا بما هو أعسر منها وأنكد، وأبعد مطلباً وأضيق، فلم يغالب طبيعتك إثم ما كنت عزماً، ولم يخالف عادتك وزر ما كنت حُلماً.

وأنت مذ كنت في المهد طفلاً، تزداد في كل يوم - طفلاً - فضلاً، وفي الرؤية بُعداً، وفي الإفهام قُرباً، حتى إذا صرت أعلم الناس بصنائعك الشريفة ومناقبك الحميدة، وأشهرهم اضطلاعاً بصنائعك واحتمالاً لنعمتك حقاً، وأقدمهم سبقاً // (٣٤ ظ) وأوفقهم لطاعتك، وأركدهم بفنائك، أردت أن تعامله بالإنصاف، والإنصاف ظلم من مثلك، ثم تفعل ذلك به، وهو أضعف ما كان رُكناً، وأوهن ما كان عظماً، وفي ذراك شاخ، وفي ظلك هـرم، فإما رددت عليه شبابه، وأعدت إليه قوته، وإما أن تدفع إليه ما ينوب عن الشباب، وما يجبر الضعف، ولا بد من أحدهما، فاختر لنفسك، فإن الخيار في يدك، ثم سبحان الله رب العالمين، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور^(٢١٦)، ومن الإكلال بعد الاحتمال.

ولو رأيت هذا في المنام لكان عندي أضغاث أحلام، ما لنا - أصلحك الله - ولمواعيد عُرُوب^(٢١٧)، وقصة غراب نوح^(٢١٨)، وأماني الكمون، كانت مواعيدك إنجازاً، ولك رائد لا يكذب، ومخيلة لا تخلف، فما لنا ولبرق الخُلب^(٢١٩)، ولنار الحُبّاحب^(٢٢٠)، ولم عودتني الحقائق، وعدوتني بسرعة الإيجاب / (٣٥ و)، ولم أودعتني العز ومن رأيك إذلال، ولم أطلقت لسانني ومن شأنك إخراسي، فردني كما أخذتني، أو رد علي ما وعدتني، وإن كنت

إنما ترده عليّ مخافة أن يعظم عليك الحق، أو يغلظ عليك الأمر، فإني لست من ها هنا استجديك، ولا بهذا احتج عليك، وليس بالحرمة أمت إليك، ولا بالذمام أطلب ما عندك، وقد أخذنا من الحرمة، إذ كنا على الحرمة نعمل، واستوفينا حق الذمام، وإن كنا على الذمام نتكل، ولم يكن ها هنا هوى يحررك، وأشر يرغبك، ومُشاكلة من الطبيعة، ومُجازاة بالمحبة، وعقد إحاء، وخلّة صفاء، ورغبة في الصنعة، وإشفاق على سالف النعمة، فلسنا في حال يُقيم عليها حرٌّ، ولا يرضى بها كريم، وليس يرضى بهذا إلا من لا ينبغي لك أن ترضى به، ومن كان من هذه الطبقة فليس مثلك رغب في تقريبه، لا والله حتى يكون فيمن ينفق عليك دليل على صواب تدبيرك // (٣٥ ظ) وحتى يكون جليستك شاهداً على حسن اختيارك.

فإن كان شفيعي إليك الهوى، فلست أعرف الهوى إلا بالغلبة، وإلا بالاستعجال عن المشاورة، وإن كنت محتملاً للصبر، فالذي بقي أيسر، إلا أنك ترب^(٢٢١) السالف من يعجبك، وتغسل به العار عن صنيعتك ما بدا لك في هذا ألم، فكن حمّالاً أثقال، ومتى لم تكن ناهضاً بالأعباء، فوالله لوجهك عند المصيبة أشد إشرافاً من وجه الشاكر عند النعمة، وهل تكثر لها مع تمام عزمك، وهل تحفى^(٢٢٢) بها مع ثبات جنانك، وهل في الأرض أبل ريقاً عند مُعضلة، ولا أرطب لساناً عند قاذحة، ولا أرخى بالاً عند نازلة، ولا أخذ بالحزم عند ساعة المهلة لساعة الحاجة، ولا أغنى عن التجلد عند وقوع البلية منك؟ فإن اعتللت بالعادة، فعادتُ أحسن عادة، وإن احتججت بالطبيعة فطبيعتُ أكرم طبيعة، وإن احتجرت بالتهيب، فأنت أجزأ من الليث / (٣٦ و)، وأمضى من النصل.

إن نَفسي لا يُحتمل أن تكون في هذه الحال، وأنا في هذه الحال، فأعطيني^(٢٢٣) رأيك في مقدار حرفين، إن كان كلاماً، وإن شئت بالإشارة، وكل ما خف عليك فهو أحب إليّ. قد جللت عن المكافأة، ونبلت عن المجازاة، ولن تكون بالحزم موصوفاً، وبالحلم مذكوراً، حتى تؤثر الحق متى ظهر لك، وحتى تدع المكافأة، وترغب عن المحاماة، وتستصغر شفاء الغيظ وتحقر مناسم الصغار، وليس لإساءتك إلى أعدائك بعد ظُهور قدرتك وجه غير الثبل وعظم القدرة.

(فصل)

وهذا بابٌ أَنْتَ فَتَحْتَهُ يا أبا فلان، وَأَنْتَ أُولَى بِسَدِّهِ، وَفَتَقُ أَنْتَ أَحَدَثَهُ، وَأَنْتَ أُولَى بِرَتْقِهِ. نحن نحتالُ باللفظ، ونموه بالمعاني، والناسُ يحتجون بالعمل، ويقضون بالعيان. ليس يُشبهه حالنا في الحرمة حالكَ في الجاه والقدرة، ولا ظاهرُ ما نحن عليه باطنُ ما أَنْتَ عليه، وليس بعد // (٣٦ ظ) حُرْمَتِي من حُرْمَةِ، ولا بعد حالِكَ حالٌ يُرْتَجَى، ولا بعد منزلتك منزلةً تَسْمُنِي، ولستُ أنتظرُ شيئاً، ولا ينتظرُ ولا أتوقع حقاً أزيدُه في حُقوقي، ولا يتوقع فائدةً يريدُها في فوائده، ولا نريدُ إلا بقاءَ النعمة، وثباتَ الدولة، فأدامها اللهُ لك، وثبتها في عقبك، فَإِنَّ مِمَّا يُطْمَعُنِي فِي بَقَائِهَا أَنْكَ أَخَذْتَهَا بِحَقِّكَ، واستوجبتها بما فيك مِنْ أسبابها، ومن شأنِ الأجناسِ أَنْ تتفاضلَ، ومن عادةِ الأشكالِ أَنْ تتقادمَ، والشئُ يتغلغلُ إلى معدنه، ويحنُ إلى عُنصره، فإذا صادفَ منبته، ولأقَى مَغْرَسه، رسخَ بعُروقه، وبسقَ بفُروعه، وتمكَّنَ تمكَّنَ الإقامة، وثبتَ ثباتَ الطبيعة.

وما زالت قلقَةً نحوك، ونازعةً إليك، وحبذا هي مُطمئنةٌ ساكنةٌ، وراضيةٌ بمكانها قانعة، وويلٌ لمن تعرَّضَ لها، وهو لا يستحقُّها، وترحاً لمن ابتلى بها، ثم لم يعمل في الخلاصِ منها، فَإِنَّ لَهَا عِبْئاً يُثْقِلُ الظهرَ، ويملاً // (٣٧ و) الصدر، وليس يحتملها بحقها إلا التامُّ الوافرُ، ولا ينهضُ بثقلها إلا الجامعُ الكاملُ، وإلا مَنْ فِي قَوْمِهِ فَضْلٌ^(٢٢٤) عليها وسعةٌ لأكثرِ منها، وإلا فَإِنَّ المجهودَ مُنْهَرَمٌ، والمجهودُ يحتاجُ إلى جِمام، والمبهورُ يحتاجُ إلى تنفَس، ومتى استجمَ نفسه ضاعَفَ عليه كدُّه.

وكيف يفهم السُّكرانُ ما يَقْهَمُ الصَّاحِي، وَمَنْ لِلناقصِ بمعرفةِ الوافر، وكذلك المشغولُ بتمامِ نفسِ الفارغ، وكيف يتكفُّ القناعةُ مَنْ قد عاد مُستفزعُ الاستطاعة؟! وهل تُنالُ الأمورُ بغيرِ ألتها، وهل يُطمعُ فيها بغيرِ أسبابها، وهل يتسلى صاحبُ البلاءِ إلا ببعضِ ما معه مِنَ الرجاء؟! وَمَنْ أَسْوأَ حالاً مِنْ مَغْلُوبٍ لا يُعْذَرُ، ومبتلى لا يُرْحَمُ، وَمَنْ لا يَعْرِفُ علته، وَمِنْ أَيِ جنسٍ دُواه، فَإِنَّ شكا إلى عاجزٍ أعاره من عَجْزِه، وأمدُه من جزعه، وأضراره على كثرةِ الشكوى، وعودُه قلةُ الصبر، وسهْلُ عليه سُخْفُ الجزع، وحسَنُ عنده مُطالبَةُ الحريصِ. وإنْ فزعَ إلى قادرٍ منعه الدعاء والرحمة والاستماع // (٣٧ ظ) والمشورة، فضلاً عن مواساته، وإيثاره إياه على بذلِ جَاهِهِ، وحسَنِ شَفَاعَتِهِ.

وأشدُّ على المريض من علقته، واقتلُّ له من دائه يأسُهُ من مُعالجة الطبيب الرفيقِ الشفيقِ، فليس لهذا البائس إلا كريمٌ حليمٌ، حكيمٌ رحيمٌ، مع ذلك عليمٌ مُعافى، وكأنَّه لم يزل مُبتلى ومُوقى، وهو مصابٌ منكوبٌ ومحدودٌ^(٢٢٥)، وهو في معرفة محروم، قد عرف النفوسَ وأقدارها، والعللَ وأوزانها، وعرف جميعَ الداء، كما عرف جميعَ الدواء، فيعالج النفوسَ بطلبِ الرحمة، ويرحمُ المرضى بفضلِ الحكمة، فصارت رحمتهُ علةً لمعرفته، وحكمتهُ سبباً لرحمته وقد وثقَ بثوابِ الشكر، وشرفِ الذكر، وبِعظيمِ الأجر، وعرفَ ما في إضاعة ذلك من الوزر، لا يعرفُ ساعاتِ المسألة، ولا مقاديرَ الطلب، ولا الشيء الذي يُعطي الرهبة دون الرغبة، وبالهوى دون الحرمة، وبالكناية دون الإفصاح، وبالتفريط دون الأنسة، أو بالكفاية دون القربة، أو بالمشاكلة دون الحقوق / (٣٨ و) حتى يصير مأوى لكلِّ معروفٍ شاذٍ، وقراراً لكلِّ غريبٍ نادرٍ، وكلِّ صنيعَةٍ ليس لها ربٌّ، ويدٍ ليس لها نصير.

وليس يتكلفُ الصبرَ إلا مَنْ يُؤمنُ بعاقبةِ الصبر، ولا يطلبُ الذكرَ إلا كلُّ مشغوفٍ بشرفِ الذكر، وإذا كانت الدنيا على هذه الطبيعة، وأفاتها على هذه الخلقة، فما أحقَّ مَنْ كان مثلي، لا يدري أسكرانُ هو أم صاحٍ، وذو آفة أو سليم؟ ولست أدري أيُّ شيء دهاني، وأيُّ هذه الآفات اعتراني؟ أخوِّدُ في أصلِ العرق، أم سوءُ عادة؟ بل ما أدري لعل لكلِّ آفةٍ في نصيباً، ولكلِّ مفسدةٍ في شَقْصَا^(٢٢٦)؟ فيا ليتها تكون الذالة، ونفضُ القوة، وإيثارُ الهوينا، وأنِّي لبخير ما لم يكن ذلك من عرقِ السوء، وخذلانِ الممتنع، والمُستمكن خلافِ المُستهتم، ومَنْ كان كذلك فغيبُهُ مأمون، وودُهُ صحيح، وقلْبُهُ فارغ، إلا من حُبِّك، وطرفُهُ مغضوضٌ إلا من حفظك، زاهبٌ حيثُ ذهبت، ومُقيمٌ حيثُ أقمت، وهم مجبولون ومُسَخرون ومُرتهنون وميسرون، قد أفرغوا لك إفراغاً، وسَبَّكوا // (٣٨ ظ) لك سَبْكَاً، وقاموا على الإخلاص، وتصفوا لك من الأدناس، وكفوك مؤونة الامتحان، وخطأ التجربة، وتوقعَ المحذور، وتكلفَ الاحتراس.

(فَصْل)

وقد رأيتُ الناسَ يمتنون إليكم بأسباب، ويتوسلون إليكم بضروب، ويضربونكم بحقوق، ويحتجون عليكم بأمورٍ لم أجدها - وإن كُثرت - تعدو ثلاثة أقسام^(٢٢٧): حقٌّ أوجبه

الطبع، والتَّعَبْدُ مُحْتَمَلٌ لِلشَّيْخِ، جَائِزٌ عَلَيْهِ النِّقْلُ^(٢٢٨). إِصْلَاحُ الَّذِي بَيْنَهُ اعْتِيَادُ، وَالطَّبْعُ جَوْهَرِيٌّ لَا يَزُولُ، وَطَبِيعِيٌّ لَا يَجُوزُ نَسْخُهُ، وَلَا يَصْلُحُ النِّفَوسُ عَلَى نَقْلِهِ.

وَاللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِمُخَالَفَةِ الْبَيِّنَةِ، وَلَا يَدْعُو إِلَى نَقْضِ السَّجِيَةِ، فَلَهُ مَعَ رُسُوحِهِ فِي الْخُلُقِ تَأَكِيدُ الْعَادَةَ، وَحَرَمَةٌ مِنْ طَرِيقِ الدِّيَانَةِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْوَادِّ لَكَ وَالشَّفِيقُ عَلَيْكَ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَحْمِيكَ مِنَ الذَّلِّ، وَلَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْفَشْلِ، إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مَا يَمْنَعُ نَفْسَهُ. وَإِنَّ الْحَبَّ / (٣٩ وَ) لَيْسِي، فَيُظَنُّ بِهِ الْغَلَطُ، وَيُذْبَذَبُ فَيَحْتَجُّ لَهُ لَنَا لَهُ، هَذَا إِذَا كَانَ ذَنْبُهُ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَخْرَجٌ فِي جَوَازِ الْفِعْلِ، لَسْنَا نَقُولُ شَيْئاً إِلَّا وَأَنْتَ أَكْثَرُ مِنْهُ تَعْرِفُ، وَلَكِنَّ الْفَارِغَ يَرَى مَا لَا يَرَى الْمَشْغُولُ.

(فَصْلٌ)

إِنِّي - أَيْدِكَ اللَّهُ - قَدْ أَلَفْتُ كِتَاباً احْتَجْتُ إِلَى عَرْضِهِ عَلَيْكَ، وَاسْتِشَارَتِكَ فِيهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يَنْقُصُ، وَالْخَبَرَ إِنَّمَا يَطْرُقُ مِنْكَ تَرَكَ التَّعَاوُنَ عَلَيْهِ وَالتَّصَادُقُ فِيهِ. وَقَدْ ظَنُّ كُلُّ رَئِيسٍ أَنَّ اسْتِعَانَتَهُ بِأَخِيهِ، وَارْتِفَاقَهُ بِصَاحِبِهِ، يُوجِبُ عَلَيْهِ الْعِجْزَ، وَلِصَاحِبِهِ الْقُوَّةَ، وَأَنَّ الْقَوِيَّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمَعُونَةِ، وَأَنَّ الْمُعْلَمَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمَادَّةِ، وَقَدْ تَحَمَّلْتُ الْإِقْرَارَ بِالْعِجْزِ عَمَّنْ آتَاهُ، وَفَخَرْتُ بِذَلِكَ عَلَى مَنْ تَحَامَلَهُ. فَأَمَّا الْمَحْتَاجُ إِلَى سَدِّ الْخَلَّةِ، وَالْمَعْوُجُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى التَّقْوِيمِ، وَالْكَلِيلُ^(٢٢٩) الَّذِي يَحْتَاجُ الشَّحْذَ^(٢٣٠)، فَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - رَحِمَ اللَّهُ أَمراً // (٣٩ ظ) أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَا، وَجَاءَ فِي الْأَثَرِ: «الْمُؤْمِنُ مَرَأَةٌ أَخِيهِ» وَالْمَصَالِحُ مُؤَكَّدَةٌ فِي شُرُوطِ الْإِسْلَامِ.

وَأَنَا أَسْأَلُكَ بِحَقِّ التَّوْحِيدِ، وَبِحُرْمَةِ الْإِسْلَامِ، وَبِذِمَامِ الْمُتَحَرِّمِينَ بِكَ، وَالْعَارِفِينَ بِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ عِنْدَكَ إِلَّا نَظَرْتَ فِي هَذَا الْكِتَابِ قَبْلَ ظُهُورِهِ، وَتَصَفَّحْتَهُ قَبْلَ انْتِشَارِهِ، فَإِنَّ عَيْبِي رَاجِعٌ إِلَيْكَ، وَنَاقِصٌ مِنْ قُوَّتِكَ، وَمَنْ لَمْ يَحْمِلْ ضَعْفَهُ حَلَّ بِهِ ضَعْفُهُ، وَمَنْ لَمْ يَنْصُرْ مَوْلَاهُ عَجَزَ عَنْ نَاوَاهُ.

وَقَدْ شَهِدْتُ - مَدَّ اللَّهُ فِي عُمْرِكَ - مَجْلِسَكَ الْبَهِيِّ نَفْسَهُ، الْمُبَارَكَ عَلَى أَهْلِهِ، الْمُؤَسَّسَ عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَالْمُزَيْنَ بِالْقُرْآنِ، وَالْمُكَلَّلَ بِالسُّنَّةِ. وَهُوَ الْمَجْلِسُ الَّذِي [مَا] عَهْدُهُ قَطُّ إِلَّا مُتَكَلِّمٌ دَيَّانٌ، أَوْ مُتَفَقِّهُ فِي الْأَحْكَامِ، أَوْ خَطِيبٌ مُصْقَعٌ، أَوْ مِقْدَامٌ، أَوْ كَاتِبٌ أَدِيبٌ، أَوْ عَاقِلٌ أَرِيبٌ، أَوْ

سَيِّدُ مُطَاعٍ، أَوْ رَاهِبٌ مُحِبٌّ^(٢٣١)، أَوْ مُتَوَاضِعٌ صُوفِيٌّ، أَوْ مُتَشَكِّرٌ وَفِيٍّ، أَوْ مُسْتَزِيدٌ فِي نِعْمَةٍ، أَوْ مُتَحَلٍّ بِمُجَالَسَةِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ، أَوْ مُسْتَغْفِرٌ مُؤَيَّدٌ، أَوْ نَاطِرٌ مُعْتَبَرٌ، أَوْ صَامِتٌ مُفَكِّرٌ / (٤٠ و)، فَسَمِعْتُهُمْ وَقَدْ أَجْرَوْا فِي الْاِحْتِجَاجِ لِلْفِرَارِ كَلَاماً، وَذَكَرُوا فِي نَفْيِ الْفِدَاءِ عَنْهُ أَوْجَهاً، وَسَمِعْتُ لَكَ فِيهِ جَوَاباً اسْتَحْسَنْتَهُ وَمَذْهَباً أَحْبَبْتُهُ، وَسَبِيلَنَا بِحَمْدِ اللَّهِ مُتَّفَقَةً، وَحُجَّتُنَا وَاحِدَةً.

وَقَدْ كَانَ فِي فَهْمِهِمْ عَنْكَ بَعْضُ الْعَجْزِ، وَفِي مُطَاوَعَتِهِمْ بَعْضُ الْيَقِينِ، مَعَ حُسْنِ نِيَّةٍ، وَجُودَةٍ قَصْدٍ، وَحُسْنِ إِصْغَاءٍ. وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ نَظَرَ أَبْصَرَ، وَلَا كُلُّ مَنْ تَسَمَّعَ سَمِعَ، وَقَدْ يَمْتَنِعُ الْعِلْمُ ثُمَّ يُحِبُّ، وَيَتَوَعَّرُ ثُمَّ يَسْهَلُ. وَرَفَقَكَ يَأْتِي لِهِمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَتَأْتِيكَ مَا شَدَّ عَنْهُمْ. وَاللَّهُ - لَا نَخْلَفُ بِأَعْظَمِ مِنْهُ - لَقَدْ غَبَرْتَ دَهْرًا وَبَقِيَتْ زَمَانًا، وَإِنِّي لِأَيَّاسٌ مِنْ أَنْ أَرَى مِثْلَكَ، وَإِنْ كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ تَسَاوِيكَ فِي الْكَمَالِ، وَلَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَسْنَتَتْ وَهَرَمَتْ، وَأَنَّهَا أَصْغَتْ وَأَقْبَلَتْ^(٢٣٢)، وَأَنَّهَا كَالْعَقِيمِ الَّذِي لَا يَلْقَحُ، وَالْعَاقِرِ الَّتِي لَا تَلِدُ.

وَاللَّهُ لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي نَفْسِي حِينَ فَهَمْتِكَ، وَحِينَ أَحْسَنْتُ // (٤٠ ظ) أَنْ أَحْبَبَكَ، وَحِينَ طَمَعْتُ فِي أَنْ أَحْسَنَ وَصْفِكَ، وَلَآنَ يَكُونُ التَّوْفِيقُ سَاقِنِي إِلَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَانَ^(٢٣٣) عَنْ كُتُبِي. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَوْزَنَ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَى مَنْزِلَةً، مِنَ الْاِحْتِجَاجِ لَهُ وَالْحُبِّ فِيهِ، وَرَفْعِ الظَّلَامَةِ عَنْ عِبَادَةٍ، وَكُلِّهَا بِحَمْدِ اللَّهِ مُجْتَمِعَةً فِيكَ، وَافِرَاتٍ^(٢٣٤) عِنْدَكَ. فَهَنِيئاً لَكَ فِي الدُّنْيَا الذِّكْرَ الْجَمِيلَ، وَفِي الْآخِرَةِ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، وَهَنِيئاً لَكَ مَا تَجَدُّ فِي نَفْسِكَ مِنْ عَزِّ الْإِحْسَانِ، وَمَا تَرَى بَعْدُوكَ مِنْ ذُلِّ الْإِسَاءَةِ. وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُعَاقِبِ الْحَاسِدَ إِلَّا بِالَّذِي يَجِدُ مِنَ الْغِيظِ وَتَضَاقِقِ الصُّدْرِ، كَانَ ذَلِكَ كَافِياً وَبِلَاءً عَظِيماً.

وَقَدْ رَأَيْتُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - رَجَالاً فِي مَرْتَبَتِكَ، وَفِي مِثْلِ حَالِكَ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَغْبِطَهُمْ بِهِ، وَلَمْ أَحْسُدْهُمْ عَلَيْهِ، لِمَا كَانَ فِيهِمْ مِمَّا يَضَعُ مِنَ الْقَدْرِ، وَيُسْقِطُ الْبَهَاءَ، وَيَمَحُقُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحَلَاوَةِ، / (٤١ ب) وَيَعْرِضُ لِلزُّوَالِ، وَيُغَيِّرُ الْحَالَ مِنْ خِيَانَةٍ، وَمِنْ شَرٍّ يَنْتَشِرُ، وَمِنْ شَرِّهِ^(٢٣٥) تَظْهَرُ، وَفَاحِشَةٌ تُرَكَّبُ، وَشَهْرَةٌ تُكْشَفُ عَلَى الْأَيَّامِ، وَحِيلَةٌ تَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَوَامِ، مَعَ قَلَّةِ التَّضْحِيَةِ، وَسُوءِ النَّظَرِ لِلرَّعِيَةِ.

ثم لم يكن غايةً أحدهم إلا حظَّ نفسه، ثم لم يرَ الحظَّ إلا جمعَ المال وعداوةَ الرجال، ولم يكن اللهُ ليسوي بين البراءةِ والسلامةِ، وسير أهل النُطفِ^(٣٣٦) والخيانة، في المنعِ والتحصينِ^(٣٣٧)، وفي الصنعِ والدفاع، ولو سوى اللهُ بين المُداهنِ في الدِّينِ والعادي على المسلمين، الجَمُوعِ المتنوعِ؛ وبين المُعلنِ للدِّينِ والناظرِ للمسلمين، النَّزِيهِ البَذُولِ، كان ذلك مدعاةً للسُّرورِ، ومزجراً عن الخير، واللهُ تعالى يتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ولو لم يثبت وطأتك، ويشدُّ أزرِك، إلا أنه على ظهرها مظلومٌ إلا وهو يرجوك، ولا ظالمٌ // (٤١ ظ) إلا وهو يتقيك، ولا ذو نعمةٍ صاحبُ ثروةٍ وحالٍ جميلة، إلا وهو آمنٌ لحسدك ولِدِسْكٍ وغَوائلِك، غير مُدارٍ ولا محتالٍ في صرفِ بوائِئِك. ولو ذهبوا عنك لردَّهم إليك علمهمُ بأنَّهم لا يُصيبون مثلكَ، ولو لم يكن فيك من الخِصالِ المحمودِة، والأُمُورِ المرضيِة، إلا أننا لا نعلمُ على ظهرها أحداً يُتَقَرَّبُ إليه بالعلمِ غيرك، ولا قادراً يتدلُّ عليه إخوانُهُ سواك، لكان ذلك يأتِي لنا على كلِّ غاية، ويحاورُ بنا كلَّ نهاية.

ولو كنتُ أصفُكَ بما لا تَعْرِفُهُ، وأقولُ ما لا تَعْلَمُهُ، لكنتُ لِقَتِكَ مُستحقاً، وللتبَعِيدِ مُستوجباً. ومدارُ الأمرِ على حُسْنِ الهِمَّةِ، ونزاهةِ النفسِ، والقيامِ عليها، والصبرِ على ما ينوبها.

الحواشي:

- (١) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، **البيان والتبيين**، عني بنشره: حسن الفاكهاني، ومحمد الزهري الغمراوي، المطبعة العلمية، القاهرة، ١٣١١ - ١٣١٣هـ / ١٨٩٣ - ١٨٩٥م.
- (٢) انظر: أحمد مفتاح، **مفتاح الأفكار في النثر المختار**، مطبعة جريدة الإسلام، القاهرة، ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م. ص ٣٥٨ - ٣٦٤.
- (٣) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، **البيان والتبيين**، وقف على طبعه: محب الدين الخطيب، مطبعة الفتوح، القاهرة. ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.
- (٤) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م):
- **البخلاء**، نُشر بعناية: محمد ساسي المغربي، مطبعة الجمهور، القاهرة، ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م.
- **الحيوان**، نُشر بعناية: محمد ساسي المغربي، مطبعة الحميدية ومطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٣ - ١٣٢٥هـ / ١٩٠٥ - ١٩٠٧م.
- **مجموعة رسائل الجاحظ**، نُشرت بعناية: محمد ساسي المغربي، مطبعة التقدم العلمية، القاهرة، ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م.
- (٥) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، **الحنين إلى الأوطان**، نُشر بعناية طاهر الجزائري، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م.
- (٦) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م):
- **ذم القواد**، نشرها: داود الجلي، مجلة لغة العرب، المجلد التاسع، بغداد، ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م. ص ٢٦ - ٣٨.
- **رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد**، نشرها: داود الجلي، مجلة لغة العرب، المجلد الثامن، بغداد، ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م. ص ٦٨٦ - ٦٩٠.
- **رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب**، نشرها: داود الجلي، مجلة لغة العرب، المجلد الثامن، بغداد، ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م. ص ٥٧٢ - ٥٧٥.
- **الناطقة**، نشرها: داود الجلي، مجلة لغة العرب، المجلد الثامن، بغداد، ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م. ص ٣٢ - ٣٩.

- (٧) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩هـ):
- رسالة في إثبات إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، نشرها: فضل الله الزنجاني، مجلة لغة العرب، المجلد التاسع، بغداد، ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م. ص ٤٩٧ - ٥٠٠.
- رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم، نشرها: فضل الله الزنجاني، مجلة لغة العرب، المجلد التاسع، بغداد، ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م. ص ٤١٣ - ٤٢٠.
(٨) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩هـ):
- البيان والتبيين، نشره: حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م.
- رسائل الجاحظ، جمعها ونشرها: حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م.
(٩) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩هـ):
- البخلاء، نشره: فان فلوتن، مطبعة بريل، ليدن، ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م.
- ثلاث رسائل، نشرها: فان فلوتن، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م.
(١٠) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩هـ)، ثلاث رسائل، نشرها: يوشع فنكل، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م.
(١١) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩هـ):
- البرصان والعرجان والعُميان والحولان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الرشيد، بغداد، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٧ - ١٣٦٩هـ / ١٩٤٨ - ١٩٥٠م.
- الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٧ - ١٣٦٤هـ / ١٩٣٨ - ١٩٤٥م.
- رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤ - ١٣٩٩هـ / ١٩٦٤ - ١٩٧٩م.
- العثمانية، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.

- (١٢) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م):
 - البخلاء، تحقيق: محمد طه الحاجري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.
- مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق: محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- (١٣) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، البرصان والعرجان والعُميان والحولان، تحقيق: محمد مُرسي الخولي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- (١٤) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، فُصول مُختارة من رسالة النساء، تحقيق: نوري حمودي القيسي، مجلة المورد، المجلد السابع، العدد الرابع، بغداد، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م. ص ٢٤٣ - ٢٥٦.
- (١٥) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، فُصول مُختارة من: الحاسد والمحسود، والمعلمين، وطبقات المُغنين، والنَّبل والتَّنبُل وذمَّ الكبر، وتفضيل النُّطق على الصمت، ومدح التجار وذم عمل السلطان، ومدح النبذ، والمودة والخلطة، واستنجاز الوعد، والشارب والمشروب، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، المجلد السابع، العدد الرابع، بغداد، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م. ص ١٣٧ - ٢٠٨.
- (١٦) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، فُصول مختارة من: الوكلاء، وتفضيل صناعة الكلام، والجوابات في الإمامة. تحقيق: يحيى وهيب الجبوري، مجلة المورد، المجلد السابع، العدد الرابع، بغداد، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م. ص ٢٠٩ - ٢٤٢.
- (١٧) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق: باول كراوس وطه الحاجري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م.
- (١٨) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م):
 - البلدان، تحقيق: شارل بلا، مجلة المشرق، المجلد الستون، بيروت، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م. ص ١٦٩ - ٢٠٥.

- التربيعة والتدوير، تحقيق: شارل بلا، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.
- تصويب علي بن أبي طالب في تحكيم الحكيم، تحقيق: شارل بلا، مجلة المشرق، المجلد الثاني والستون، بيروت، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م. ص ٤١٧ - ٤٩١.
- تفصيل البطن على الظهر، تحقيق: شارل بلا، حوليات الجامعة التونسية، العدد الثالث عشر، تونس، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م. ص ١٨٣ - ١٩٢.
- القول في البغال، تحقيق: شارل بلا، مكتبة الحلبي، القاهرة، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.
- المسائل والجوابات في المعرفة، تحقيق: شارل بلا، مجلة المشرق، المجلد الثالث والستون، بيروت، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م. ص ٣١٥ - ٣٢٦.
- مفاخرة الجواري والغلمان، تحقيق: شارل بلا، دار المكشوف، بيروت، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.
- نفي التشبيه، تحقيق: شارل بلا، مجلة المشرق، المجلد السابع والأربعون، بيروت، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م. ص ٢٨١ - ٣٠٣.
- (١٩) انظر: الجاحظ، أبو عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، فلسفة الجد والهزل، نشرها: محمد علي الزعبي، منشورات حمد، بيروت، د.ت.
- (٢٠) انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، البيان والتبيين وأهم الرسائل، اختارها ونشرها: جميل جبر، المطبعة الكاثوليكية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م.
- (٢١) انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، آثار الجاحظ، اختارها ونشرها: عمر أبو النصر، مطبعة النجوى، بيروت، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
- (٢٢) انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م):
- البغال، قدم له وعلق عليه: علي أبو ملح، مكتبة الهلال، بيروت، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- الرسائل الأدبية، قدم لها وعلق عليها: علي أبو ملح، مكتبة الهلال، الطبعة الأولى، بيروت، د.ت.
- الرسائل السياسية، قدم لها وعلق عليها: علي أبو ملح، مكتبة الهلال، دار الهلال، بيروت، د.ت.

- الرسائل الكلامية، قدّم لها وعلّق عليها، علي أبو ملح، مكتبة الهلال، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢٣) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، رسائل الجاحظ، قدّم لها وعلّق عليها: عبد الأمير مهنا، دار الحداثة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٢٤) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، ما لم يُنشر من تراث الجاحظ، تحقيق: حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م. ويتضمن هذا المجموع رسالتين هما: الردّ على المشبهة، والمسائل والجوابات في المعرفة، أما الأولى فقد تزامن تحقيق الضامن لها مع تحقيق عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ المنشورة في القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م (ج ٤، ص ٣ - ١٦)، وأمّا الأخرى فقد حققها شارل بلاّ سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م (انظر الحاشية ١٨).

(٢٥) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، كتابان للجاحظ: كتاب المعلمين، وكتاب الرد على المشبهة، تحقيق: إبراهيم خليل جريس، مكتبة السروجي، عكا، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م. وقد نشر الكتاب الأول مراراً، فمن ذلك النشرتان العلميتان اللتان حققهما كل من: حاتم الضامن في بغداد (انظر الحاشية ١٥)، وعبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ المنشورة في القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م (ج ٣، ص ٢٥ - ٥١).

(٢٦) كان طه الحاجري قد نشر «مجموع رسائل الجاحظ» بالاشتراك مع باول كراوس في القاهرة سنة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م (انظر الحاشية ١٧) ثم أعاد إخراج هذه النشرة - وحده - في بيروت سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م (انظر الحاشية ١٢) بعد أن أضاف إلى نشرته الجديدة رسالتين منشورتين في القاهرة بين سنتي ١٣٦٥ - ١٣٦٦ / ١٩٤٧م، (انظر الحاشيتين ١٦٦، ١٦٧) كما زود الحاجري كل رسالة من الرسائل التي كان نشرها مع كراوس بدراسة استلها من كتابه «الجاحظ: حياته وأثاره».

- (٢٧) نُشِرَ هذا الكتاب أول الأمر محمد مرسى الخولي (انظر الحاشية ١٣)، بيد أن عبد السلام محمد هارون لم يقنع بهذه النشرة، فأعاد تحقيق الكتاب ثانية، (انظر الحاشية ١١) بالاعتماد على النسخة الخطية نفسها التي اعتمدها الخولي.
- (٢٨) ظهر هذا الكتاب أول الأمر مُحَقَّقاً على يد شارل بلا، (انظر الحاشية ١٨)، ثم على يد عبد السلام هارون ضمن رسائل **الجاحظ** المنشورة في القاهرة سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م (ج ٢، ص ٢١١ - ٣٧٨)، ولم تكن نشرتها: عبد الأميرمها ضمن رسائل **الجاحظ** (ج ٢، ص ١٣٥ - ٢٤١) وعلي أبو ملحم (انظر الحاشية ٢٢) سوى تشويه للنشورتين المذكورتين.
- (٢٩) نُشِرَ هذا الكتاب المنسوب إلى الجاحظ انظر: (الحاشية ٣٠)، فان فلوطن في ليدن سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م، ومحمد أمين الخانجي في القاهرة سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، ثم نشرته المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢، وطُبع بمطبعة الفتوح الأدبية في القاهرة سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، ثم نُشر مرة في صيدا سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٦٥م، وأخرى في بيروت سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م. ولم تأت نشرتها: عصام عيتاني المنشورة في بيروت سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، وعلي أبو ملحم المنشورة في بيروت سنة ١٤١١هـ / ١٩٩١م، بجديد في هذا الباب.
- (٣٠) انظر حول خطأ نسبة هذا الكتاب إلى الجاحظ: محمد الدروبي، **آثار الجاحظ (دراسة توثيقية)**، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م. ص ٢٠٤ - ٢٠٦.
- (٣١) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، **المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ**، نسخة خطية محفوظة في برلين تحت رقم (٥٠٣٢). ٢١ ظ.
- (٣٢) انظر: الجاحظ، رسائل **الجاحظ** (تحقيق هارون): ٢٢٤/٤ - ٢٢٥.
- (٣٣) **المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ**: ٤١ ظ - ٤٢ و.
- (٣٤) انظر: الجاحظ، رسائل **الجاحظ**: ٣١٨/١.
- (٣٥) **المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ**: ٣٣ و.
- (٣٦) انظر: الجاحظ، رسائل **الجاحظ**: ٧٢/٣.

- (٣٧) انظر: الجاحظ، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٢١ ظ - ٢٢ و.
- (٣٨) انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ: ١٩١/٤ - ١٩٤.
- (٣٩) انظر: المصدر نفسه: ٢٢١/٤ - ٢٢٣.
- (٤٠) انظر: الجاحظ، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٣١ ظ - ٣٢ ظ.
- (٤١) انظر: الجاحظ، الحيوان (تحقيق هارون): ٨٨/١ - ٨٩.
- (٤٢) انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ: ٣/٣، ٢٧، ٥٥، ١١٣، ١٣١، ١٣٩، ١٦٣، ٢٢٣، ٢٨٥، ٣٠٣، ٥/٤، ١٩، ٤٧، ٦٩، ٨٣، ٩٥، ١٠٩، ١٥١، ١٥٥، ١٦٩، ١٩١، ٢٠٧، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٦١، ٢٨٥، ٣١١.
- (٤٣) انظر: المصدر نفسه: ٢٧٩/١ - ٣٠٨.
- (٤٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٧٩/١، وراجع ما سيأتي في المطلب اللاحق.
- (٤٥) انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ: ٢٩٢/١ - ٢٩٤، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ١٩ و - ٢١ ظ.
- (٤٦) انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ: ٣٠٦/١ - ٣٠٨، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٢٥ ظ.
- (٤٧) انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ: ٢٨٩/١، ٢٩١، ٣٠٣، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٣٩ ظ - ٤٠ و.
- (٤٨) المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ١٩ و.
- (٤٩) المصدر نفسه: ٢٧ و.
- (٥٠) المصدر نفسه: ٣٠ و.
- (٥١) المصدر نفسه: ٣٠ و.
- (٥٢) المصدر نفسه: ٣٠ ظ.
- (٥٣) النديم، أبو الفرج، محمد بن أبي يعقوب، (ت ٤٣٨هـ/ ١٠٢٦م)، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، طهران، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م. ص ٢١٢.
- (٥٤) المصدر نفسه: ٢١٢ (الحاشية ٢).
- (٥٥) انظر: الخطيب البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي، (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٨٩م)، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت. ٢١٣/١٢.

- (٥٦) انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ: ٨٧/١ - ١٣٤.
- (٥٧) انظر: المصدر نفسه: ٢٧٩/١ - ٣٠٨.
- (٥٨) انظر: المصدر نفسه: ٣/٢ - ٢٣.
- (٥٩) انظر: النديم، الفهرست: ٢١١ (الحاشية ٤).
- (٦٠) انظر: الدروبي، آثار الجاحظ (دراسة توثيقية): ١٠٤، ١٤٩ - ١٥٠، ١٥٣ - ١٥٤، ١٦٢، ١٧٣، ٢٤٠ - ٢٤١.
- (٦١) المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٢١ ظ.
- (٦٢) رسائل الجاحظ: ٣٠١/١.
- (٦٣) انظر: الجاحظ، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٣٩ ظ - ٤٠ و.
- (٦٤) انظر: الجاحظ رسائل الجاحظ: ٢٨٩/١ - ٢٩١، ٣٠٣.
- (٦٥) انظر: المصدر نفسه: ٢٧٩/١.
- (٦٦) انظر: الجاحظ المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٢١ ظ.
- (٦٧) انظر: الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث العربي، بيروت، د. ت. ١٩٦/٩.
- (٦٨) انظر: الجاحظ، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٤٠ و - ٤١ ظ.
- (٦٩) انظر: المصدر نفسه: ٤١ ظ - ٤٢ و.
- (٧٠) انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ١٩٦/٩.
- (٧١) انظر: المصدر نفسه: ١٩٧/٩.
- (٧٢) المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٢٤ ظ.
- (٧٣) المصدر نفسه: ٢٤ ظ - ٢٥ و.
- (٧٤) المصدر نفسه: ٢٥ ظ.
- (٧٥) انظر: الدروبي، آثار الجاحظ (دراسة توثيقية): ١٧١.
- (٧٦) انظر: الجاحظ، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ١٩ و.
- (٧٧) انظر: المصدر نفسه: ١٩ ظ، ٢١ ظ.
- (٧٨) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ و، ٢٠ ظ، ٢٤ و.
- (٧٩) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ و.

- (٨٠) انظر: الجاحظ، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ، ١٩ ظ، ٢٤ و، ٢٨ ظ.
- (٨١) انظر: المصدر نفسه: ١٩ ظ، ٢٤ و، ٢٥ و، ٢٦ ظ.
- (٨٢) انظر: المصدر نفسه: ١٩ و، ١٩ ظ، ٢٠ ظ، ٢٢ ظ، ٢٣ و، ٢٣ ظ، ٢٤ و، ٢٦ و.
- (٨٣) انظر: المصدر نفسه: ١٩ و، ٢٠ ظ، ٢٤ ظ.
- (٨٤) انظر: المصدر نفسه: ١٩ ظ.
- (٨٥) انظر: المصدر نفسه: ١٩ ظ.
- (٨٦) انظر: المصدر نفسه: ١٩ ظ.
- (٨٧) انظر: المصدر نفسه: ٢٤ ظ.
- (٨٨) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ و، ٢١ ظ.
- (٨٩) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ و، ٢٠ ظ، ٢١ و.
- (٩٠) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ و.
- (٩١) انظر: المصدر نفسه: ٣٣ ظ.
- (٩٢) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ ظ، ٣٣ ظ.
- (٩٣) انظر: المصدر نفسه: ٣٣ ظ.
- (٩٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ و، ٢٠ ظ.
- (٩٥) انظر: المصدر نفسه: ١٩ ظ، ٢٠ ظ.
- (٩٦) انظر: المصدر نفسه: ٢٣ ظ.
- (٩٧) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ ظ.
- (٩٨) انظر: المصدر نفسه: ٢١ و.
- (٩٩) انظر: المصدر نفسه: ٢١ و.
- (١٠٠) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ و، ٢١ و، ٢٦ و.
- (١٠١) انظر: المصدر نفسه: ٢٦ و.
- (١٠٢) انظر: المصدر نفسه: ٢٦ و.
- (١٠٣) انظر: المصدر نفسه: ٢٤ و.
- (١٠٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٤ و، ٢٦ و.
- (١٠٥) انظر: المصدر نفسه: ٢٠ ظ، ٢٤ و، ٢٤ ظ، ٢٦ و.

- (١٠٦) انظر: الجاحظ، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٢٠، و ٢٦، ظ ٢٧، و.
(١٠٧) انظر: المصدر نفسه: ٢١، و.
(١٠٨) انظر: المصدر نفسه: ١٩، و.
(١٠٩) انظر: المصدر نفسه: ١٩، ظ.
(١١٠) المصدر نفسه: ٢٤، و.
(١١١) المصدر نفسه: ٢١، ظ.
(١١٢) المصدر نفسه: ٢١، ظ.
(١١٣) انظر: المصدر نفسه: ٣٤، ظ - ٣٦.
(١١٤) انظر: المصدر نفسه: ٤٠، و.
(١١٥) انظر المصدر نفسه: ٤١، ظ - ٤٢، و.
(١١٦) المصدر نفسه: ٢٥، و.
(١١٧) انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ: ٢٩٢/٣.
(١١٨) انظر: الجاحظ، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٢٤، ظ - ٢٥، و.
(١١٩) انظر: المصدر نفسه: ٢٥، ظ.
(١٢٠) المصدر نفسه: ٢٦، ظ.
(١٢١) انظر: المصدر نفسه: ٢١، ظ.
(١٢٢) انظر: المصدر نفسه: ٢١، ظ.
(١٢٣) انظر: المصدر نفسه: ٢٢، و.
(١٢٤) انظر: المصدر نفسه: ١٩، ظ، ٢١، ظ - ٣٢، ظ.
(١٢٥) انظر: المصدر نفسه: ١٩، و.
(١٢٦) انظر: المصدر نفسه: ٢٢، و - ٢٢، ظ، ٢٥، و.
(١٢٧) انظر: المصدر نفسه: ٢٤، ظ - ٢٥، و.
(١٢٨) انظر: المصدر نفسه: ١٩، ظ.
(١٢٩) المصدر نفسه: ٣١، ظ.
(١٣٠) المصدر نفسه: ٣١، ظ - ٣٢، و.
(١٣١) انظر: المصدر نفسه: ٣٢، و.

- (١٣٢) انظر: الجاحظ، المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٣٢ و.
- (١٣٣) رسائل الجاحظ: ٢٥٤/١ - ٢٥٥.
- (١٣٤) انظر الجاحظ: المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٣١ ظ.
- (١٣٥) انظر: المصدر نفسه: ٣٢ ظ.
- (١٣٦) انظر: المصدر نفسه: ٣٢ ظ.
- (١٣٧) المصدر نفسه: ٣٩ ظ - ٤٠ و.
- (١٣٨) انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ: ٣٠٩/١ - ٣١٩.
- (١٣٩) انظر: المصدر نفسه: ٢٨٩/١.
- (١٤٠) انظر: المصدر نفسه: ٢٢/٢.
- (١٤١) المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٢٩ و - ٢٩ ظ.
- (١٤٢) سورة البلد، الآيات: ١٤ - ١٦.
- (١٤٣) السورة نفسها، الآية: ٦.
- (١٤٤) المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٤١ ظ.
- (١٤٥) سورة طه، الآية: ٣٠ - ٣١.
- (١٤٦) المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٣٥ و.
- (١٤٧) انظر: ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م. ٦١/٢. وانظر: الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م) الفائق في غريب الحديث، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، القاهرة، د. ت. ٩٠/٢.
- (١٤٨) المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ: ٣٤ و.
- (١٤٩) انظر: المصدر نفسه: ٣٥ و.
- (١٥٠) المصدر نفسه: ٣١ و.
- (١٥١) المصدر نفسه: ٣٩ ظ - ٤٠ و.
- (١٥٢) المصدر نفسه: ٢٠ و.
- (١٥٣) المصدر نفسه: ٢١ و.

- (١٥٤) المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ : ٢٦ ظ.
- (١٥٥) المصدر نفسه: ١٩ ظ.
- (١٥٦) المصدر نفسه: ١٩ و.
- (١٥٧) المصدر نفسه: ١٩ ظ.
- (١٥٨) المصدر نفسه: ٢٠ ظ.
- (١٥٩) انظر: المصدر نفسه: ٢٧ ظ - ٢٨ و.
- (١٦٠) انظر: المصدر نفسه: ١٩ و.
- (١٦١) انظر: المصدر نفسه: ١٩ ظ.
- (١٦٢) انظر: المصدر نفسه: ١٩ ظ - ٢٠ و.
- (١٦٣) انظر: المصدر نفسه: ٢١ و.
- (١٦٤) انظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار ورفاقه، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م. ٣/ ١٢٠.
- (١٦٥) انظر: الجاحظ، مقدمة مجموع رسائل الجاحظ (تحقيق كراوس والهاجري).
- (١٦٦) انظر: الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، رسالة في موت أبي حرب الصّفار البصري، تحقيق: محمد طه الهاجري، مجلة الكاتب المصري، المجلد الثالث، العدد التاسع، القاهرة، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٧م. ص ٣٨-٤٤.
- (١٦٧) انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، فصول في هجاء محمد بن الجهم البرمكي، تحقيق: محمد طه الهاجري، مجلة الكاتب المصري، المجلد الخامس، العدد السابع عشر، القاهرة، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م. ص ٥٥ - ٦٢.
- (١٦٨) انظر: الجاحظ، مجموع رسائل الجاحظ (تحقيق الهاجري): ١٧ - ٤٦.
- (١٦٩) انظر: مجلة المشرق، المجلد السابع والأربعون: ٢٨١ - ٢٨٢.
- (١٧٠) انظر: المصدر نفسه: ٢٨١.
- (١٧١) انظر: الدروبي، آثار الجاحظ (دراسة توثيقية): ٤٠ - ٤١.
- (١٧٢) انظر: المصدر نفسه: ٩٦ - ٩٧، ١١٥، ١٧١ - ١٧٢.
- (١٧٣) كذا في الأصل.

- (١٧٤) في الأصل: بالتقى.
- (١٧٥) في الأصل: تنوج.
- (١٧٦) الأغمار: غير المجريين (اللسان: مادة غمر).
- (١٧٧) في الأصل: فصل.
- (١٧٨) في الأصل: احتزأ.
- (١٧٩) المجاذبات: المنازعات (اللسان: مادة جذب).
- (١٨٠) انظر: حول مفهوم الجاحظ للناطقة رسالته في هذا الموضوع ضمن ، رسائل الجاحظ: ٣/٢ - ٢٣.
- (١٨١) سقوراً: بعيداً (اللسان: مادة سقر).
- (١٨٢) الریض: مَنْ لم يحكم تدبير أموره (المصدر نفسه: مادة روض).
- (١٨٣) الخَطَل: الأحمق (المصدر نفسه: مادة خطل).
- (١٨٤) في الأصل: وصفه قدره، ولعلها: وصفه وقدره.
- (١٨٥) في الأصل: ويزودهم.
- (١٨٦) في الأصل: ولعلمت.
- (١٨٧) القائف: مَنْ له بصرٌ في معرفة الأثر وتتبعه (اللسان: مادة قيف).
- (١٨٨) في الأصل: يستعين.
- (١٨٩) هو يابك الخرميُّ الثائر على الدولة العباسية، تمكن المعتصم من قمع ثورته بقيادة الأفشين، وصلبه في بغداد سنة (٢٢٣هـ/ ٨٣٧م) ، انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ٢٩/٩ - ٥٤.
- (١٩٠) يعني ملك الروم الذي هزمه المعتصم.
- (١٩١) عمورية: بلدة في بلاد الروم (تركيا في الوقت الحاضر) فتحها المعتصم سنة (٢٢٣هـ/ ٨٣٧م)، انظر: ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م: ١٥٨/٤.
- (١٩٢) كُنية أحمد بن أبي دؤاد.
- (١٩٣) في الأصل: أعظمهم عليه بركة.
- (١٩٤) يستحذيهكم يطلب منهم (اللسان: مادة حذو).

- (١٩٥) في الأصل: توازوا.
- (١٩٦) مُقصعاً: مُحْتَقراً (اللسان: مادة قصع).
- (١٩٧) البيضة: الحمى (اللسان: مادة بيض).
- (١٩٨) في الأصل: هو.
- (١٩٩) ضائعاً: منتشرة رائحته (اللسان: مادة ضوع).
- (٢٠٠) المُخَنَّق: موضع الخنق من العنق (المصدر نفسه: مادة خنق).
- (٢٠١) الشاكريّة: الجند، انظر: الجاحظ، الحيوان ١٣٠/٢، رسائل الجاحظ: ٣٠/١.
- (٢٠٢) سورة البلد: الآيات ١٤ - ١٦.
- (٢٠٣) الطيلسان: خمار يطرحه علماء الشريعة على الرأس أو الكتفين، أو عليهما معاً، انظر: دوزي، رينهارت: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، وزارة الإعلام، بغداد، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م: ٢٢٩ - ٢٣٠.
- (٢٠٤) في الأصل: يصف.
- (٢٠٥) يجتويه: يكرهه (اللسان: مادة جوي).
- (٢٠٦) يبدو أن سقطاً وقع في هذا الموضع.
- (٢٠٧) في الأصل: يصف.
- (٢٠٨) واقعة: مُحبة (اللسان: مادة ومق).
- (٢٠٩) في الأصل: لان.
- (٢١٠) في الأصل: من.
- (٢١١) التكملة من الورقة الثامنة عشرة من الأصل.
- (٢١٢) التكملة من الورقة الثامنة عشرة من الأصل.
- (٢١٣) دحساً: فحساً (اللسان: مادة دحس).
- (٢١٤) في الأصل: تباع.
- (٢١٥) من قول زهير بن أبي سلمى:
- دع ذا، وعدّ القول في هرمٍ خير الكُهول، وسيد الحضر
- انظر: ثعلب، أبو العباس (ت ٢٩١هـ / ٩٠٣م): شرح شعر زهير بن أبي سلمى.
- تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٢هـ /

١٩٨٢م: ٧٧.

(٢١٦) في الحديث «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسافراً يقول: «اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب والحور بعد الكور» انظر: ابن حنبل، أحمد (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م): مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م: ٨٢/٥.

(٢١٧) عُرقوب: رجل يُضرب به المثل في خُلف الوعد، انظر: الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت ٥١٨هـ / ١١٢٤م): مجمع الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة، عيسى البابي، الطبعة الأولى القاهرة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م. ٣/٣٣.

(٢١٨) غراب نوح: يُضرب مثلاً للرسول الذي لا يعود، انظر: الجاحظ، الحيوان: ٣١٨/٢، الثعالبي، أبو منصور عبد الملك (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م): ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م: ٤٠.

(٢١٩) البرق الخُلب: الذي لا غيث معه، يُضرب مثلاً لمن يُخلف كما يخلف ذلك البرق انظر: الثعالبي، ثمار القلوب: ٦٥٥.

(٢٢٠) نار الحباحب: قيل الحباحب رجل كان في الجاهلية، وكان من بخله أنه كان إذا أوقد السراج، فإذا أراد إنسان أن يأخذ منه أطفأه، يضرب المثل به للبخل، انظر: الميداني، مجمع الأمثال: ٣/٣٣.

(٢٢١) ترب: تُنعم (اللسان: مادة رب).

(٢٢٢) تحفى: تحتفل (المصدر نفسه: مادة حفى).

(٢٢٣) كذا في الأصل.

(٢٢٤) في الأصل: فصل.

(٢٢٥) المحدود: قليل الحظ (اللسان: مادة حد).

(٢٢٦) شقصاً: نصيباً (المصدر نفسه: مادة شقص).

(٢٢٧) لم تُذكر جميع هذه الأقسام، والظاهرة أن السقط سبب ذلك.

(٢٢٨) يبدو أن سقطاً وقع في هذا الموضع.

(٢٢٩) الكليل: الضعيف (اللسان: مادة كل).

- (٢٣٠) الشحذ: الحد والإرهاق (المصدر نفسه: مادة شحذ).
(٢٣١) لعلها: مُحِبَت.
(٢٣٢) في الأصل: أحييت.
(٢٣٣) كذا في الأصل، وفي العبارة اضطراب.
(٢٣٤) كذا في الأصل.
(٢٣٥) شرة: حدة (اللسان: مادة شرّ).
(٢٣٦) النطْف: الشر (المصدر نفسه: مادة نطف).
(٢٣٧) التحصير: البُخل الشديد (المصدر نفسه: مادة حصر).

